مطبوعات كتابي

يصدرها حلمي مراد



الجزء الثاني

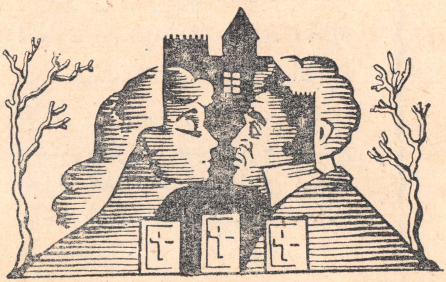
النص الكامل لقصة "إميلى برونتى" الخالدة

مرتفعات ويذرنج

إميلى برونتى

مرتفعات ويذرنج

الجزء الثانى



WUTHERING HEIGHTS

By

EMILY BRONTË

الثمن ١٢ قرشا

ترقيم الصفحات

روعى فى ترقيم صفحات هذا الجزء أن تبدأ أرقام صفحاته من حيث انتهى ترقيم الجزء الأول ، أى من (١٩٣) ، حتى يتسنى لمن يرغب فى جمع أجزاء هذه القصة فى مجلد واحد أن يجد ترقيم صفحاتها مسلسلا .

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الخمسون

مرتفعات ويذرنج

(الجزء الثانى)

نقلها الى العربية

شمس الدين الفرياني

الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الان ستة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها تسعة وأربعون كتابا (ومجلدان كبيران خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

◆ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

◆ ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ان يرسل القيمة بحوالة بريدية .

وصل ما انقطع ..

فى نهاية الجزء الأول من هذه الترجمةالكاملة لقصة (مرتفعات ويذرنج)، تركنا «كاثرين ايرنشو» ـ زوجة «ادجارلينتون» ـ راقدة فى فراش المرض، تفضى لخادمتها « نللى » بذات نفسها، بعد أن اعتصمت بمخدعها وأضربت عن تناول الطعام ثلاثةايام، على اثر المشادة العنيفة التى نشبت بينها وبين زوجها بسبب هيثكليف ! .. وكانت مقدمات هذه الأزمة بين الزوجين قد بدأت حين اكتشفت كاثرين أن شقيقة زوجها ـ ايزابيلا ـ قد وقعت فى هوى هيثكليف، فلما حاولت ان تنفرها منه باظهار عيوبه ومساوئه لها بصراحة، أهانتها العذراء الغريرة واتهمتها بالغيرة والأنانية .. فما كان من كاثرين الا أن انتقمت لكرامتها بأن أفشت لهيثكليف السر الذى كان يجهله، سر تدله ايزابيلا فى هواه !.. وانتهز الوضيع الفرصة فدبر الخطة لاستغلال هذا الهوى الصبيانى وتنميته، بغية مصاهرة غريمه الارستقراطى « ادجار لينتون » واذلاله !.. وذات يوم فاجأ ايزابيلا فى الحديقة فقبلها .. ولمحته « نللى » فأبلغت كاثرين بالأمر !.. فثارت كاثرين فى وجهه وأمعنت فى تأنيبه. وانتهز ادجار الفرصة ـ دون أن يقف على سبب المشادة ـ فأمر هيثكليف بالخروج وعدم العودة الى الدار مرة أخرى !.. وعلى اثر انصرافه ثارت كاثرين على زوجها واتهمته بالانصات الى حديثها مع هيثكليف من وراء الباب، ثم تظاهرت بالاصابة

بنوبة صرع !.. لكن « نللى » فضحت « تمثيلها » ، فانطلقت غاضبة الى مخدعها حيث اعتصمت به وأضربت عن تناول الطعام ثلاثة أيام .. لكنها فى اليوم الثالث اضطرت الى أن تطلب بعض الطعام . وحين علمت أن زوجها يقضى وقته فى غرفة المكتبة ، غير مبال بقطيعتها ، صدمها اهماله اياها ، وأصابها بشبه نوبة من الهذيان وهواجس الخوف من الموت والأشباح .. ثم راحت تذكر « نللى » ببدء أحداث الأسبوع المشئوم حين اعتصمت بمخدعها ، وكيف داهمها قبيل الفجر كابوس مروع خشيت منه على عقلها .. كابوس رأت نفسها فيه وقد عادت سنوات الى الوراء ، الى يوم مات أبوها وهى بعد صبية فى الثانية عشرة ، فأقام أخوها « هندلى » ستارا بينها وبين لقاء رفيق صباها هيثكليف ــ الذى كان بالنسبة لها كل حياتها وكيانها ! ــ الأمر الذى قاست منه الشعور بالبؤس والعذاب .. وصور لها الكابوس كأنها تنام فى فراشها القديم بمنزل « مرتفعات ويذرنج » ، الفراش الشبيه بخزانة ذات فتحات مربعة ، من خشب البلوط ــ وهو الفراش الذى نام فيه مستر لوكوود ، مستأجر الدار ، فى بداية القصة ــ فلما أفاقت من الكابوس وجدت نفسها فى مخدعها بقصر « ثرشكروس جرانج » حيث أغفت وهى جالسة على الأرض مستندة الى رجل المائدة !

والآن تستطيع أن تتابع القراءة، من حيث تركنا «كاثرين» تحدث « نللى » عن ذلك الكابوس :

« .. رأيتنى قد عدت صبية ، وكان أبى قد ووری التراب للتو ، وبدأ عذابى وبؤسى من ذلك الفراق الذى فرضه هندلى بينى وبين هيثكليف .. كنت قد تركت وحدى ، للمرة الأولى فى حياتى ، فلما أفقت من نعاس مزعج بعد ليلة حافلة بالبكاء والنشيج ، رفعت يدى لأزيح بها باب الخزانة المنزلق .. فاذا بها تصطدم بسطح المائدة !.. وأفقت من رؤياى فجأة لأجدنى متكئة على بساط أرض مخدعى ! .. واذا بآلامى الماضية تضيع فى لجة بعيدة الغور من اليأس . وليس فى وسعى أن أفسر لك لماذا شعرت بالشقاء والتعاسة يحيطان بى من كل جانب ، فلا بد ان ذلك كان شعورا وقتيا، لأننى لا أكاد أجد له سببا او مبررا .. ولكن خيل الى كأن يقظتى قد انتزعتنى، وأنا بعد فى الثانية عشرة، من (المرتفعات)، ومن كل حياتى ورفقتى المبكرة ، ومن كيانى كله ، كما كان لى هيثكليف فى ذلك الوقت .. وصيرتنى فجأة ، وبعنف ، الى مسز لينتون ، سيدة « ثرشكروس جرانج » ، وزوجة رجل غريب .. انه النفى والتشريد من كل ما كان دنياى وعالمى .. ألا ليتك تتصورين لمحة من الهاوية التى ترديت فيها . وبوسعك أن تهزى راسك كما تشائين يا نللى ، ولكنك حقا قد ساعدت على عدم استقرارى ! .. كان ينبغى أن تتحدثى الى ادجار . كان هذا واجبك حقا .. وأن ترغميه على أن يدعنى فى سلام وهدوء .. آه ! .. اننى أشتعل بالنيران !.. ليتنى أكون فى الخلاء الآن . ليتنى أعود فتاة صغيرة من جديد، جريئة ، نصف متوحشة ، حرة مطلقة السراح ، أسخر مما يوجه لى من اهانات ، ولا أجن منها غضبا كشأنى الآن ! .. لماذا تغيرت كل هذا التغير ؟ .. لماذا تندفع الدماء فى عروقى فائرة ثائرة لمجرد سماع كلمات قلائل ؟ .. اننى واثقة من أننى سوف أعود لحالتى الأصيلة اذا وجدت نفسى بين الأحراش

فوق هذه التلال . افتحى النافذة ثانية يا نللى ، ودعيها مفتوحة على مصراعيها . أسرعى .. لماذا لا تتحركين ؟

فقلت : « لأننى لا أريد أن تصابى ببرد يقتلك .. »

— بل تعنين انك لا تريدين أن تهيئى لى فرصة للحياة !.. ومع ذلك فانى لم أصبح عاجزة عن الحراك بعد .. سوف أفتحها بنفسى ..

وهبطت من الفراش مسرعة — قبل أن أستطيع منعها — فاجتازت الحجرة وهى تترنح فى مشيتها ، ففتحت النافذة وأطلت منها وقد احنت جسمها الى الأمام غير مبالية بالهواء المثلج الذى كان يمزق كتفيها العاريتين كسكين حادة .. ورحت أتوسل اليها ، ثم حاولت أن أستخدم القوة فى ارغامها على الرجوع عن النافذة ، ولكنى سرعان ما تبينت ان الحمى قد زادتها قوة ، حتى جاوزت كل ما لدى من قوة ! (وقد كانت فى الواقع تحت تأثير الحمى ، اذ اقتنعت بذلك من أفعالها اللاحقة وهذيانها الغريب) .. وكان القمر غائبا عن صفحة السماء ، وكل شيء تحتنا يسبح فى لجة من الظلمة الحالكة . ولم يكن ثمة أى ضوء ينبعث من أى منزل قريب أو بعيد ، فقد أطفئت أضواء المنازل كلها منذ زمن طويل .. أما أضواء (مرتفعات ويذرنج) فلم يكن يبين منها شيء البتة ، ورغم ذلك فانها كانت تؤكد انها ترى بريقها ، اذ صاحت فى لهفة :

— انظرى !.. هذه حجرتى والشمعة مضاءة فيها ، والأشجار تتأرجح أمامها !.. أما الشمعة الأخرى فهى فى حجرة جوزيف العلوية . ان جوزيف ما زال ساهرا ، أليس كذلك ؟.. انه ينتظر حتى أعود الى المنزل ليوصد البوابة . حسنا ، سوف ينتظر طويلا !.. فهى رحلة شاقة ، والقلب الكسير لا يستطيع قطعها فى يسر !.. ولا بد لنا من المرور بكنيسة (جيمرتون) لكى نقوم بهذه الرحلة .. لقد طالما

تحدينا أشباحها معا ، وراهن كل منا الآخر على الوقوف بين القبور ، ودعوة الأشباح للظهور ! .. ولكن هبنى راهنتك الآن ، يا هيثكليف ، فهل تجرؤ على الوقوف هناك ؟ .. لو أنك فعلت فسوف أستبقيك معى ، فما كنت لأرقد هناك وحدى . فليدفنونى على عمق اثنى عشر قدما ، وليهيلوا أحجار الكنيسة كلها فوق قبرى ، فلن استريح حتى ألقاك معى .. لن يقر لى قرار قط حتى أفعل !

وتمهلت قليلا ، ثم استطردت وعلى محياها ابتسامة غريبة :

ـ انه يفكر فى الأمر ، ويفضل لو ذهبت اليه ، بدلا من أن يأتى الى .. ابحث عن طريقة لذلك اذن ! .. ولكن بعيدا عن فناء الكنيسة ! .. يا لك من بطىء متثاقل ! ولكن هدىء روعك ، فقد كنت دائما تتبعنى !

واذ تبينت عبث مجادلتها ومعارضة أقوالها الجنونية ، فقد رحت أفكر فى وسيلة أستطيع الوصول بها الى شىء أغطيها به أو ألفه حولها ، دون أن تتخلى قبضتى عن الامساك بها (فما كنت لآمن لها وأدعها وحدها بجوار النافذة الفاغرة فاها) .. وفى تلك اللحظة أجفلت اذ سمعت صرير أكرة الباب وهى تدور ، ثم اذا بمستر لينتون يدخل الحجرة .. فقد كان فى المكتبة فلم يبارحها الا فى تلك الساعة ، وبينما كان يجتاز الردهة سمع حديثنا فأثار فضوله ، أو خوفه ، وأراد أن يعرف ما يحدث فى تلك الساعة المتأخرة .. فما كدت ألمح صيحة الدهشة التى تجمعت على شفتيه ، اذ شهد المنظر الذى طالعه ، وجو الحجرة القارس ، حتى هتفت قائلة ، لأحول دون انطلاق تلك الصيحة :

ـ أواه يا سيدى ! .. ان سيدتى المسكينة مريضة ، وقد تغلبت على ، فلم أعد أستطيع تهدئتها البتة .. أرجو أن تأتى وتقنعها بالذهاب الى الفراش . انس غضبك يا سيدى ، لأنها من الصلابة بحيث لا يمكن تحويلها عما صممت عليه !

فصاح وهو يسرع الينا : « كاثرين مريضة ! ؟ .. اغلقى النافذة يا ايلين .. كاثرين .. لماذا ؟ »

وكف عن الكلام بغتة ، اذ كان منظر مسز لينتون المشعث ، وشحوبها الشديد ، قد ألجم لسانه وشله عن النطق ، ولم يعد قادرا الا على نقل نظراته بينها وبينى فى دهشة وارتياع .. فتابعت الحديث قائلة :

ـ لقد لبثت هنا كل هذه المدة ، تجتر أحزانها ، لا تذوق طعاما ، ولا تنفس عن صدرها لمخلوق ، فلم تسمح لأحدنا بالدخول عليها الا الليلة ، ولذلك لم يكن فى وسعنا أن نخبرك عن حالتها ـ اذ كنا أنفسنا نجهلها ـ ولكن أرجو أن يكون الأمر بسيطا ..

وقد شعرت بأننى كنت انطق بهذه العبارات فى ارتباك وتلعثم ، فنظر السيد الى عابسا ، ثم قال فى صرامة : « أترين الأمر بسيطا ، يا ايلين دين ؟ .. سوف يكون عليك أن تفسرى مسلكك اذ كتمت ذلك عنى ، فيما بعد .. »

ثم أخذ زوجته بين ذراعيه ، وراح ينظر اليها فى ألم وأسى .. فلم يبد فى نظراتها ، فى بادىء الأمر ، ما ينم على أنها قد عرفته ! .. كانت نظراتها الشاردة لا تراه ولا تتبينه . ومع ذلك كانت النوبة الثائرة قد بدأت فى الهدوء ، فما أن تحولت عيناها عن الظلمة الخارجية الحالكة ، وبدأت تركز انتباهها فيه رويدا رويدا ، حتى عرفت من الذى كان يحوطها بذراعيه ، فقالت فى انتفاضة غاضبة :

ـ آه ! .. هل أتيت يا ادجار لينتون ؟ .. انك احد تلك الأشياء التى يجدها المرء دائما كلما كان فى غير حاجة اليها ، وعندما يحتاج اليها لا يجدها قط ! .. وأحسب أننا سوف يكون لدينا الكثير من الأحزان الآن ـ بل أنا واثقة من ذلك ـ ولكنها لا يمكن أن تحول بينى وبين مسكنى الضيق هناك ! .. مسكني ومستقرى وموئل راحتي ، حيث قدر علي أن

أرقد فيه قبل انقضاء الربيع . ولكنه لن يكون بين قبور آل لينتون ، تحت سقف الكنيسة ، وانما فى الهواء الطلق ، فوق الروابى ، لا يعلوه سوى قائم من الحجر ! .. أما أنت فلك أن تذهب حيث يسرك الذهاب ، فاما أن تمضى اليهم أو تأتى الى !

فغص السيد بريقه وهو يقول : « ماذا فعلت بنفسك يا كاثرين ؟ .. ألم أعد شيئا بالنسبة اليك ؟ وهل تحبين ذلك المنكود هيث .. ؟ »

فصاحت مسز لينتون : « صه ! .. اسكت . لو ذكرت هذا الاسم فسوف أنهى المشكلة فى الحال ، بوثبة من النافذة ! .. ان ما تلمسه الآن قد يكون لك ، ولكن روحى سوف تكون فوق قمة ذلك التل قبل أن تضع يديك على ثانية .. اننى لا أريدك يا ادجار .. بل لم يعد فى وسعى أن أريدك ! .. ارجع الى كتبك، فكم يسرنى أن لديك ما يسليك ويسرى عنك . اما أنا ، فكل ما كان لك منى ، قد ذهب وولى ! »

فتدخلت قائلة : « ان عقلها يهيم فى آفاق مجهولة ياسيدى، لقد قضت الليلة بأسرها تهذى بكلام لا معنى له .. ولكن دعها تنل نصيبا وافرا من الراحة ، وقسطا كافيا من العناية ، وسوف تستعيد قواها ومرحها .. يجب أن نحذر ، من الآن فصاعدا ، من اغضابها .. »

فأجاب مستر لينتون : « لست أريد منك المزيد من النصائح . انك تعرفين طبيعة سيدتك ، ومع ذلك شجعتنى على مضايقتها ! .. ثم لم تلمحى لى مرة واحدة عن حالتها طيلة هذه الأيام الثلاثة ! .. ألا ما أقسى قلبك ! ان شهورا من المرض ما كانت لتحدث بها مثل هذا التغيير ! »

فبدأت أدافع عن نفسى ، شاعرة بأن من الظلم أن الام بسبب المشاكسات الخبيثة التى يأتيها شخص آخر غيرى !.. فصحت قائلة : « لقد كنت أعرف ما فى طبيعة مسز لينتون

من صلابة الرأى وحب السيطرة والتسلط ، ولكنى لم أكن أعرف رغبتك فى تغذية طباعها الحادة الضارية والاستزادة منها ! .. لم اكن اعرف اننى فى سبيل مرضاتها وتدليلها يجب أن أتغاضى عما يفعله مستر هيثكليف ! .. لقد أديت واجبى كخادم أمينة عندما أخبرتك ، وهأنذا أتقاضى الأجر اللائق بخادم أمينة ! .. حسناً ، ان ذلك يعلمنى أن أكون أشد حذراً ، وعليك فى المرة القادمة أن تجمع معلوماتك بنفسك ! ! »

— فى المرة القادمة التى تأتين لى فيها بقصة جديدة ، سوف تتركين خدمتى يا ايلين دين !

— أحسبك لا تريد أن تسمع شيئا عن هذا الأمر بعد الآن يا مستر لينتون ؟.. اذن فقد نال هيثكليف اذنك لمغازلة الآنسة ، وانتهاز كل فرصة يتيحها له غيابك ليأتى ويسمم أفكار السيدة ضدك ؟

وعلى الرغم من حالة الذهول التى كانت فيها كاثرين ، فان ذهنها كان مرهفا وعلى وعى بحديثنا ، اذ هتفت فى حرارة : « آه ، لقد لعبت ايلين دور الجاسوس الخائن ! .. ان ايلين هى عدوى الخفى فى هذا المنزل .. أنت أيتها الساحرة الشمطاء ، اذن فقد كنت تجمعين السهام لترمينا نحن بها ؟ دعنى .. دعنى ، سوف أجعلها تتحسر على ما فعلاته .. سوف أجعلها تلقى جزاء جحودها ! »

وكانت عيناها تومضان ، وتتوهجان فى ثورة جنونية ، وراحت تناضل فى سبيل الخلاص من بين ذراعى لينتون .. فلم أحس ميلا الى البقاء حتى تنفذ وعيدها ، وعزمت على أن أنشد معونة الطبيب ، من تلقاء نفسى وتحت مسئوليتى ، فأسرعت بمغادرة الحجرة ، ثم المنزل كله .. وفيما كنت اجتاز الحديقة الى الطريق ، فى موضع كان سور الحديقة عنده يحمل خطافا مما تعلق فيه أعنة الجياد ، لمحت جسما أبيض

اللون يتحرك حركة غير منتظمة ، لا شأن للرياح فى احداثها .. وعلى الرغم من اننى كنت فى عجلة ، الا اننى تلبثت ريثما أفحص ذلك الشيء ، حتى لا تخامرنى الهواجس فيما بعد فتثير فى خيالى الاقتناع بأن ما رأيته كان عفريتا من الجان ! .. وكم كانت دهشتى وحيرتى عندما اكتشفت ، بطريق اللمس أكثر من الرؤية ، انه كان كلب مس ايزابيلا الصغير « فانى » ، معلقا فى الخطاف من رقبته بمنديل ، وفى الرمق الأخير من حياته ! .. وأسرعت بتخليص الحيوان المسكين ، وأنزلته الى الحديقة ، وكنت قد رأيته يتبع سيدته الى حجرتها بالطابق العلوى عندما أوت الى فراشها ، فأخذنى العجب مما أتى به الى الحديقة ، ومن ذلك الشرير الذى كاد أن يقتله .. وبينما كنت أحل عقدة المنديل من حول الخطاف ، بلغ مسامعى وقع حوافر جواد ينطلق بسرعة كبيرة عن مبعدة .. ولكن كان لدى من الشواغل التى تملأ تفكيرى ، ما جعلنى لا أعير صوت الجواد اهتماما ، ولو انه كان صوتا غريبا فى هذا المكان فى الساعة الثانية من الصباح !

ومن حسن الحظ أن مستر كينيث كان يغادر منزله لزيارة مريض فى الريف ، عندما بلغت الشارع الذى يقيم فيه ، فما أن سمع روايتى عن مرض كاثرين لينتون حتى عدل عن طريقه وعاد معى فى الحال . وكان رجلا بسيطا صريحا لا يعرف المداورة ، فلم يخف شكه فى نجاتها من هذه الصدمة الثانية ، ما لم تكن أكثر خضوعا لتعليماته وأوامره مما بدا منها فى المرة الأولى ، ثم استطرد يقول :

ــ اسمعى يا نللى دين .. اننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من الاعتقاد بأن هناك سببا خارجيا لما أصابها ، فما هذه الأحداث التى تمر « بالجرانج » هذه الأيام ؟ .. لقد بلغتنا أنباء عجيبة هنا ، وفتاة قوية البنية مثل كاثرين لا يمكن أن تقع صريعة المرض بسبب شيء تافه ، كما أن هذا الطراز من

الناس لا يمرضون بسهولة ، ومن العسير أن تصيبهم الحمى أو غيرها .. فكيف كانت البداية ؟

ـ سوف يخبرك السيد .. ولكنك تعرف آل ايرنشـو تماما وتعرف حدة طباعهم ، التى بلغت مسز لينتون فيها أعلى مرتبة وبزتهم جميعا . وكل ما يمكننى قوله ان الأمر بدأ بشجار حاد ، وقد أصيبت بنوبة شديدة بينما كانت تمر بعاصفة من الغضب والانفعال الشديد ، أو هذه قصتها على الأقل ، لأنها فرت من الميدان عند احتدام العاصـفة وحبست نفسها فى حجرتها ، ثم رفضت أن تتناول شيئا من الطعام ، وغدت الآن تتناوبها ساعات من الهذيان تارة ، ومن الاستغراق فيما يشبه الحلم تارة أخرى . وهى تعرف المحيطين بهـا ولكن عقلها يمتلىء بقدر عظيم من الأفكار والأوهام .

فقال كينيث متسائلا :

ـ أحسب أن مستر لينتون سوف يأسف كثيرا ؟

ـ يأسف ؟ .. ان قلبه سوف يتحطم لو أصابها سوء ! .. وأرجو ألا تثير فى نفسه القلق بأكثر من القدر الضرورى !

فقال رفيقى : « حسنا ، لقد حذرته .. وعليه أن يترقب عواقب اهماله لتحذيرى . ألم تنعقد أواصر الود والألفة بينه وبين مستر هيثكليف أخيرا ؟ »

ـ ان مستر هيثكليف يكثر من التردد على (الجرانج) ، وان كان ذلك يرجع الى معرفة السيدة له منذ أن كان غلاما صغيرا ، أكثر من حب السيد لصحبته .. ولكنه فى الوقت الحاضر قد أعفى من مشقة الزيارة ، بعد أن بدر منـه ما ينم على طموح مزعوم الى يد مس لينتون .. ولست أعتقد أن أحدا سوف يسمح له بزيارة البيت بعد ذلك ثانية ..

وألقى الطبيب بسؤاله الثانى ، فقال :

ـ وهل قابلته مس لينتون بالاستخفاف وعدم الاكتراث ؟

فأجبته فى احجام عن متابعة الحديث فى هذا الموضوع :

ــ انها لا تطلعنى على أسرارها ..

ــ كلا ، فهى فتاة ماكرة لا تطلع أحدا على سرها ، ولكنها بلهاء حقا .. فقد سمعت من مصدر يوثق بكلامه انها كانت فى الليلة الماضية ــ ويا لها من ليلة ! ــ تتمشى مع هيثكليف فى الحقول الممتدة خلف منزلكم أكثر من ساعتين .. وكان يستحثها ويلح عليها ألا تعود الى المنزل ثانية ، بل ترافقه على ظهر جواده وتفر معه ! .. وقد أخبرنى محدثى أنها لم تستطع استمهاله الا بعد أن عاهدته بكلمة الشرف على أن تستعد لذلك فى أول لقاء لهما بعد ذلك . أما متى يكون ذلك ، فان محدثى لم يسمعهما يحددان موعده .. ولكن عليك أن تنذرى مستر لينتون حتى يفتح عينيه جيدا !

وملأتنى هذه الأنباء بمخاوف جديدة ، فسبقت كينيث ، وأسرعت أعدو عائدة الى الدار . وكان الكلب الصغير ما زال ينبح فى الحديقة ، فتخلفت لحظة ريثما أفتح له البوابة ، ولكنه بدلا من الاتجاه نحو باب المنزل انطلق يعدو هنا وهناك ويتشمم العشب ، وكان على وشك أن يهرب الى الطريق لو لم أمسك به وأحمله معى الى الداخل .. وقد تحققت شكوكى عندما صعدت الى حجرة ايزابيلا ، اذ وجدتها خالية ! .. ولو اننى ذهبت اليها منذ ساعات قليلة ، فربما كان مرض مسز لينتون قد منعها من الاقدام على هذه الخطوة الطائشة ، ولكن ما الذى يمكن عمله الآن ؟ .. كان هناك احتمال طفيف فى ادراكهما اذا اقتفى أثرهما فى الحال ، ولكنى لم أكن أستطيع تتبعهما بنفسى ، أو اجرؤ على ايقاظ العائلة جميعها ، واشاعة الفوضى والاضطراب فى المنزل كله .. وكذلك لم يكن فى وسعى أن أبوح بالأمر للسيد الذى كانت نكبته الحالية تشغل كل أفكاره ، ولم يبق فى قلبه متسع لحزن جديد .. فلم أجد خيرا من أن أمسك لسانى وادع الأمور تجرى فى مجراها . واذ كان كينيث قد وصل ، رافقته الى حجرة

السيدة ــ وقد انقلبت سحنتى ــ لأعلن مقدمه . وكانت كاثرين وقتئذ تنام نوما مضطربا ، اذ كان زوجها قد أفلح فى تهدئتها ، وتخفيف ثائرة نوبتها ، ووقف عند طرف الوسادة يرقب كل تبدل يطرأ على أساريرها التى تعبر عن ألم شديد ..

وبعد أن فحص الطبيب الحالة بنفسه ، أعرب عن أمله فى الوصول الى نتيجة طيبة اذا استطعنا أن نحيطها دوما بجو من الهدوء والسكينة . وقد أفضى الى بأن الخطر الداهم لم يكن فى موتها ، بقدر ما كان فى اصابتها بخلل دائم فى قواها العقلية !

ولم يغمض لى جفن فى تلك الليلة ، وكذلك مستر لينتون .. بل لم نذهب الى فرشنا أو نحاول النوم قط . حتى الخدم استيقظوا قبل موعدهم المألوف بكثير ، وراحوا يتحركون فى المنزل بخطى خفيفة مسترقة ، ويتبادلون الكلام همسا كلما مر بعضهم ببعض خلال قيامهم بمهامهم . كان كل من فى الدار مستيقظا يقوم بعمله ، الا مس ايزابيلا ، فراحوا يتهامسون عن نومها العميق ويعجبون منه ! .. بل لقد سأل أخوها عما اذا كانت قد استيقظت من النوم ، وبدا متلهفا على وجودها ، وقد ساءه أنها لم تبد شيئا من القلق على زوجة أخيها .. وكنت أرتعد خشية أن يبعث بى لاستدعائها ، ولكن حدث ما كفانى مشقة أن أكون أول من يعلن خبر فرارها : فان احدى الخادمات ــ وهى فتاة طائشة كانت قد ذهبت الى (جيمرتون) فى الصباح الباكر لتحضر شيئا من البلدة ــ أسرعت ترتقى الدرج ، مبهورة الأنفاس ، فاغرة الفم ، واندفعت الى داخل الحجرة صائحة :

ــ آه !.. رحماك يا رب ! .. ماذا سيحل بنا بعد ذلك ؟ .. سيدى .. سيدى .. ان سيدتنا الصغيرة ..

فبادرتها زاجرة ، وقد اشتد بى الغضب من ضجيجها :

ــ صه ! .. كفي عن هذه الجلبة !



« .. وعندئذ ألقى على المنزل نظرة أخرى سريعة ، واذ حسب نفسه بمنجاة عن الانظار ، كان الوغد من النذالة بحيث احتضنها وقبلها ! » (صفحة ١٧١)

وقال مستر لينتون: « اخفضى صوتك يا مارى .. ماذا هنالك ؟ .. وما الذى ألم بسيدتك الصغيرة ؟ »

ــ لقد ذهبت ! .. ذهبت ! .. وصديقك هيثكليف هو الذى فر بها !

فصاح ادجار ذاهلا ، وهو ينهض من مقعده فى انفعال شديد :

ــ هذا ليس صحيحا ! .. بل لا يمكن أن يحدث قط ! .. ما الذى أنبت هذه الفكرة فى رأسك ؟ .. وأنت يا ايلين دين ، اذهبى وابحثى عنها . هذا أمر لا يمكن تصديقه .. بل لا يمكن أن يحدث !

وكان وهو يقول ذلك ، قد سار بالخادم العجول نحو الباب ، وعاد يسألها أن تبين له الأسباب التى تجعلها تؤكد هذا الفرار .. فغمغمت تقول متلعثمة : « لماذا ؟ .. لقد التقيت فى الطريق بالغلام الذى يحضر لنا اللبن ، فسألنى عما اذا كانت المتاعب قد ثارت فى (الجرانج) ، وحسبته يقصد مرض السيدة ، فأجبته بالايجاب ، وعندئذ قال : « أظنكم أرسلتم من يقتفى أثرهما ؟ » ، فحملقت فيه فى دهشة أدرك منها اننى لا أعرف شيئا عن الحقيقة ، وذكر لى كيف أن سيدا وسيدة توقفا عند حانوت الحداد ، على بعد ميلين من (جيمرتون) ، ليصلحا حدوة جوادهما ، بعد منتصف الليل بقليل .. وكيف نهضت ابنة الحداد لتستطلع أمرهما خفية ، فعرفتهما على الفور .. ولاحظت أن الرجل ــ وكان هيثكليف بلا ريب ، فان أحدا لا يخطىء معرفته ــ قد دس فى يد أبيها جنيها ذهبيا أجرا له على عمله . وكانت السيدة تلف ياقة المعطف حول وجهها ، ولكنها طلبت جرعة من الماء ، وبينما كانت ترشفها ، سقطت ياقة المعطف فرأت الفتاة وجهها جليا وعرفتها . وكان هيثكليف يمسك عنان الجواد بكلتا يديه وقد انطلقا به فى سرعة عظيمة ، بالقدر الذى تسمح به وعورة

الطريق ، وهما يتنكبان القرية فى سيرهما . ولم تقل الفتاة شيئا لأبيها ، ولكنها نشرت الخبر فى (جيمرتون) كلها هذا الصباح !

وأسرعت أتقصى الأمر فى حجرة ايزابيلا ، من الناحية الشكلية ، ثم عدت لأؤيد رواية الخادم . وكان مستر لينتون قد رجع الى مقعده بجوار الفراش ، فلما أحس بعودتى ، رفع ناظريه نحوى ، ثم خفضهما ثانية ، بعد أن قرأ فى وجهى معنى ما علاه من وجوم ، وأخلد الى الصمت ، فلم يصدر أمرا او ينبس بكلمة واحدة .. فسألته قائلة :

ـ ألا نحاول اتخاذ أية تدابير للحاق بها واعادتها الى المنزل ؟ .. وكيف ترى أن نفعل ذلك ؟

فأجابنى السيد : « لقد ذهبت بملء رغبتها وارادتها ، ومن حقها أن تفعل ذلك ما دام يسرها .. فلا تشغلينى بأمرها بعد ذلك قط ، لأنها من الآن تعد شقيقتى اسما فحسب .. لا لأننى أتبرأ منها ، بل لأنها هى التى تنكرت لى وبرئت منى .. »

وكان ذلك كل ما قاله فى هذا الموضوع ، فلم يتخذ سبيلا واحدا للبحث عنها والتقصى عما تم من أمرها ! ولم يذكرها على لسانه فى أى وقت ، الا عندما أمرنى بأن أرسل اليها فى منزلها الجديد ، أينما كان مقره ـ عندما يبلغنى خبر عنه ـ كل مالها فى الدار من متاع ..

الفصل الثالث عشر

ظل الهاربان غائبين زهاء شهرين دون أن نسمع عنهما شيئا . وفى خلال هذين الشهرين كانت مسز لينتون فريسة لأسوأ صدمة ـ مما يسمى بالحمى المخية ـ حتى قهرتها وتغلبت عليها . وما من أم رؤوم كان يمكن أن ترعى طفلها

الوحيد وتمرضه بتفان واخلاص أكثر مما كان ادجار يرعاها ويمرضها .. كان يسهر عليها الليل والنهار ، ويحتمل فى صبر لا ينضب معينه جميع المضايقات والمتاعب التى يمكن أن تنشأ عن أعصاب سريعة التهيج وعقـل مرتج .. وكانت فرحته وشكرانه ، عندما أعلن الطبيب زوال الخطر عنها ، لا يعرفان حدودا لانطلاقهما ، رغم ما لاحظه كينيث من أن التى أنقذها ادجار من القبر سوف تجزى رعايته وعنايته بأن تكون مصدر قلق دائم له فى المستقبل ! .. والواقع انه كان يضحى بصحته وقوته فى سـبيل المحافظة على حطام بشرى ، لا أكثر ولا أقل . كان يقضى السـاعة تلو السـاعة جالسا الى جانبها يرقب صـحتها البدنية وهى ترتد اليهـا تدريجيا ، ويعلل النفس بالأمانى الجياشة ـ الخيالية ـ فى أن عقلها سوف يعود الى توازنه الصحيح أيضا ، وانها لن تلبث حتى ترجع الى حالتها الطبيعية التى كانت عليها من قبل ..

وكانت أول مرة غادرت فيها حجرتها ، بعد ذلك المرض الطويل ، فى بداية شهر مارس التالى . وكان مستر لينتون قد وضع فوق وسادتها ، قبل أن تستيقظ فى الصباح ، حفنة من زهور الأقحوان الذهبية ، فلما أفاقت من نومها لمحتها عيناها ـ اللتان ظلتا طويلا لا تعرفان بريق السرور ـ فتألقتا فى فرح وابتهاج ، وراحت تضم الزهور معا ، هاتفة :

ـ هذه بواكير الزهور فى (المرتفعات) .. وهى تذكرنى بالنسـمة العليلة ، والشمس السـاطعة الدافئـة ، والثلوج الذائبة .. قل لى يا ادجار ، ألا تهب نسائم الجنوب الآن ؟ .. وهل اختفت الثلوج أم كادت ؟

ـ لقد اختفت الثلوج تماما من هنا يا عزيزتى ، ولست أرى على طول تلال البرارى الا بقعتين بيضاوين .. كما أن السماء زرقاء صافية ، والقنابر تصدح بأنغامها الشجية ، والجداول

والنهيرات ملأى بالماء حتى حافتها .. لقد كنت فى مثل هذا الوقت من ربيع العام الماضى ، يا كاترين ، أتوق الى وجودك تحت سقف هذا البيت ، ولكنى الآن أود لو انك كنت فوق هذه التلال ، فان الهواء يهب عليها جميلا عليلا ، حتى لأحس بأنه خليق بأن يشفيك تماما ..

فقالت المريضة : « لن أذهب الى هناك قط الا مرة واحدة أخرى .. وفى تلك المرة سوف تتركنى هناك ، وسوف أبقى بها أبدا . وفى الربيع القادم سوف تتوق ثانية لأن تجدنى تحت سقف هذا البيت ، وسوف تنظر الى الوراء وترى انك كنت سعيدا اليوم ! »

فغمرها لينتون بفيض من الملاطفات الرقيقة ، وحاول أن يبهجها بكلمات الحب والحنان ، ولكنها راحت تنظر الى الزهور ساهمة ، وما لبثت أن تركت قطرات الدمع تتجمع على أهدابها ثم تنساب فوق وجنتيها ، لا تكف ولا تغيض .. وأدركنا جميعا انها قد تحسنت حقا ، وان اعتكافها الطويل فى مكان واحد هو السبب فى ذلك القنوط الذى يستبد بها ، والذى قد يفارقها لو بدلت المنظر الذى يحيط بها .. وأمرنى السيد بأن أشعل نارا فى حجرة الجلوس التى ظلت مهجورة أسابيع عدة ، وأن أضع مقعدا مريحا فى اشعة الشمس بجوار النافذة ، ثم احضرها من الطابق العلوى .. فجلست طويلا تستمتع بالدفء الجميل ، وقد انتعشت كثيرا — كما توقعنا — من منظر الأشياء المحيطة بها ، فهى وان كانت مألوفة لديها ، الا انها لا تقترن فى ذهنها بتلك الذكريات المروعة لحجرة مرضها البغيضة .. فلما حل المساء ، كانت تبدو منهوكة القوى الى حد كبير ، ومع ذلك لم تفلح التوسلات أو وسائل الاقناع فى اغرائها على العودة الى حجرتها ، فاضطررت الى اعداد أريكة حجرة الجلوس لتتخذ منها فراشا لرقادها ريثما يمكن اعداد حجرة أخرى لها .. وقد

اعددنا لها هذه الحجرة ـ التى ترقد أنت فيها الآن يا مستر لوكوود ـ حتى نجنبها مشقه الصعود والهبوط الى الطابق العلوى ، فهى ـ كما تعلم ـ فى نفس الطابق الذى تقع فيه حجرة الجلوس .. وسرعان ما استعادت بعض قوتها بحيث أمكنها الانتقال من أحديهما للأخرى مستندة الى ذراع ادجار . آه ، لقد ظننت وقتئذ أنها سوف تشفى حقا ، ما دمت تلقى كل هذه الرعاية والعناية . وكان ثمة سببان لأن نرجو ذلك ونتمناه ، فان على حياتها تتوقف حياة أخرى ، كما أننا كنا نداعب الأمل فى انه لن تمضى فترة وجيزة حتى تقر عينا مستر لينتون ويبتهج قلبه بمولد وريث له يقى أملاكه من أن تقع فى قبضة شخص غريب ..

ولا بد لى من القول بأن ايزابيلا أرسلت الى أخيها ، بعد نحو ستة أسابيع من رحيلها ، خطابا موجزا تعلنه فيه بزواجها من هيثكليف .. وكان خطابا جافا باردا ، ولكنها ذيلته ، وبالقلم الرصاص ، باعتذار غامض ، ورجاء رقيق بأن يذكرها ، وأن يصفح عنها ، اذا كان تصرفها قد أغضبه ، مؤكدة انها لم تستطع دفع الأمر وقتئذ ، وانها الآن بعد أن تم كل شىء ، لا تملك القوة على نقض ما أبرمته . واعتقد أن لينتون لم يرد على هذا الخطاب ، فلم يكد يمر عليه أسبوعان حتى تلقيت خطابا طويلا رأيت من العجيب صدوره من قلم عروس فرغت لتوها من شهر العسل .. وسوف أتلو عليك هذا الخطاب ، لأننى ما زلت محتفظة به ، اذ أن آثار الموتى عزيزة غالية ، اذا كانوا فى حياتهم أعزاء محبوبين :

« عزيزتى ايلين ..

« وصلت فى الليلة الماضية الى (مرتفعات ويدرنج) ، فسمعت ـ للمرة الأولى ـ ان كاثرين كانت ، وما زالت ، تعانى مرضا خطيرا . وأحسب أنه ما ينبغى لى أن اكتب اليها ، كما أن أخى اما أن يكون شديد الغضب منى ، أو شديد الأسى

على ، بحيث لم يرد على خطابى اليه .. ومع ذلك فلا بد لى من أن أكتب الى شخص ما ، وليس أمامى من أكتب اليــه سواك .. اخبرى ادجار اننى اهب الدنيا بأسرها فى سبيل ان أرى وجهه ثانية ، وأن قلبى عاد الى (ثرشكروس جرانج) بعد أن غادرتها بأربع وعشرين ساعة ، بل انه هناك الآن ، مليئا بالمشاعر الحارة نحوه ونحو كاثرين ! .. ومع ذلك فليس فى مقدورى أن ألحق به (وقد وضعت خطا تحت هذه العبارة لتؤكدها) ، فلا حاجة بهما لأن يتوقعا عودتى ، وليستنتجا من ذلك ما يشاءان ، ولكن حذار أن يعزوا ذلك الى خور فى ارادتى أو فتور فى عاطفتى ..

« هذا ما أود أن تقوليــه لأخى ، أما باقى الخطـاب فلك وحدك . وأود أن ألقى عليك سؤالين ، اولهما هو : كيف احتاث على الاحتفــاظ بالعواطف العــادية للطبيعة البشرية عنـدما كنت تقيمين هنا ؟ .. فاننى لا أتبين أية مشاعر يمكن أن يشاطرنى فيها أولئك الذين يحيطون بى !

« أما السؤال الثانى ، فاننى أهتم به اهتماما عظيما . وهاك هو : هل مستر هيثكليف انسان من البشر ؟ .. وان كان انسانا فهل هو مجنون ؟ .. واذا لم يكن ، فهل هو شيطان ؟ .. اننى لن أخبرك بالأسباب التى تجعلنى أوجه اليك هـذا السؤال ، ولكنى أتوسل اليك أن تشرحى لى — اذا استطعت — حقيقة ذلك المخلوق الذى تزوجته . أعنى عندما تحضرين لرؤيتى ، ويجب أن تحضرى سريعا يا ايلين . لا تكتبى لى ، ولكن تعالى ، وليتك تحضرين لى شيئا من ادجار ..

« واسمعى الآن كيف استقبلت فى منزلى الجديد ، الذى أدخل فى روعى أن (المرتفعات) سوف تكونه . ولست أذكر هذه الأمور التى من قبيل نقص وسائل الراحة الخارجية ، الا لتسلية نفسى ! .. فانها لا تشغل أفكارى البتة الا فى اللحظة التى أشعر فيها بالحاجة اليها . واننى لخليقة بأن أرقص طربا

وأضحك ملء قلبي لو انني وجدت هذا النقص هو كل ما اعانيه من شقاء ، وان ما عدا ذلك ليس الا حلما شيطانيا رهيبا !

« كانت الشمس تغرب وراء (الجرانج) عندما استدرنا نحو البرارى ، وكانت الساعة وقتئذ ، فيما أعتقد ، قد بلغت السادسة .. فتوقف رفيقى ما يقرب من نصف الساعة ليفتش البستان ، والحدائق ، بل والمنزل نفسه ، بقدر ما استطاع الى ذلك سبيلا . وهكذا كان الظلام قد أرخى سدوله عندما ترجلنا عن جوادينا فى الفناء المرصوف « للمرتفعات » ، فلم يلبث أن خرج زميلك السابق الشيخ ، جوزيف ، ليستقبلنا على ضوء الشمعة الخافت . ولقد فعل ذلك فى بشاشة ولطف يضافان الى سمعته الطيبة المعروفة ! .. فقد كان أول ما فعله هو أن رفع مشعله أمام وجهى مباشرة ، وراح يحملق فيه بعينين تضيقان وتفيضان خبثا ولؤما ، ثم قلب شفته السفلى ، وأشاح بوجهه عنى . وبعد ذلك قاد الجوادين الى الحظيرة ، وعاد ليوصد البوابة الخارجية بالسلاسل والأقفال ، كأننا نعيش فى احدى القلاع القديمة !

« وبقى هيثكليف ليتحدث اليه ، أما أنا فقد دخلت الى المطبخ ، ووجدته قذرا مشوشا لا نظام فيه ولا ترتيب . وأحسب أنك لو رأيته الآن لما عرفته ، فقد تغير كثيرا عما كان عليه عندما كان معهودا به اليك . وكان يقف الى جوار الموقد غلام زرى الهيئة ، قوى البنية ، قذر الثياب ، يشبه كاثرين فى عينيها وفمها ، فقلت فى نفسى : انه ابن اخ زوجة ادجار ، ومن ثم فهو ابن أخيه حكما ، وبالتالى فانه يعد ابن أخى على نحو أو آخر ، وينبغى لى أن أصافحه ، بل ينبغى لى — نعم — أن أقبله ! .. فمن الصواب أن أنشىء معه تفاهما طيبا منذ البداية ..

« اقتربت منه وحاولت أن أتناول يده المكتنزة قائلة :

— كيف حالك يا عزيزى ؟

« فأجاب فى تمتمة لم أفهم منها شيئا ، وعنـدئذ كانت محاولتى الثانية للحديث معه :

ـ هل سنكون أصدقاء يا هيرتون ؟

« فكان جزائى على هذا الاصرار فى الحديث معه ، أن أطلق من فمه سبابا قبيحا ،وتوعدنى بأن يطلق (ثروتلر) فى أثرى اذا لم « أره عرض أكتافى » ! بل لقد أيقظ كلبا ضخما ضاريا من وكره فى أحد الأركان، وراح يهمس اليه قائلا: «هيا ياثروتلر .. عليها يا ولد ! » .. ثم تحول نحوى يسألنى فى غطرسة . « والآن .. هل تذهبين لحال سبيلك ؟ »

« فدفعنى حب الحياة الى الامتثال لأمره ، وخطوت فوق العتبة الى الخارج لأنتظر عودة الآخرين فأدخل معهم . ولكن مستر هيثكليف لم يظهر فى أى مكان ، أما جوزيف ، الذى ذهبت اليه فى الحظيرة ورجوته أن يصحبنى الى الداخل، فقد راح يحملق فى وجهى ويغمغم بكلام لا أسمعه ، ثم شمخ بأنفه وقال : « مهلا ، مهلا . هل سمع انسان تقى قط بشىء كهذا ؟ .. ما هذا الكلام الذى تمضغينه وتتشدقين به ؟ .. وكيف يمكننى أن أفهم ما تقولين؟ » .. فظننته مصابا بالصمم ، وان كانت خشونته وفظاظته قد أثارت اشمئزازى البالغ ، وصحت قائلة : « لقد كنت أرجوك أن تحضر معى الى داخل المنزل .. »

ـ لا تطلبى منى شيئا كهذا .. فلدى عمل آخر أقوم به !

« وعاد يستأنف عمله ، وهو يحرك فى الوقت نفسه صفحتى مصباحه ، متأملا فى ازدراء شديد ثوبى ووجهى . (أما الأول فكان بالغ الأناقة والجمال ، وأما الثانى فانى واثقة من انه كان يحمل من الحزن ما كان يوده ويشتهيه !) .. فسرت فى الفناء حول المنزل ، وولجت كوة صغيرة ، وجدت نفسى بعدها أمام باب مغلق أبحث لنفسى أن أطرقه راجية أن اجد امامى خادما آخر أكثر أدبا . وما لبث الباب أن فتح بعد فترة وجيزة ،

ووقف فيه رجل طويل القامة شديد النحول ، بغير رباط للعنق ، فضلا عن رثاثه الثياب التى يرتديها . وكانت أساريره مختفية تحت كتل من الشعر المشعث الذى يملأ وجهه ويتدلى حتى يصل الى كتفيه . وكانت عيناه - هو الآخر - تشبه عينى كاثرين ، على نحو مخيف ، وان تجردتا من جمال عينيها .. فابتدرنى فى عبوس وصرامة :

- ما شأنك هنا ؟ .. ومن أنت ؟

- لقد رأيتنى من قبل ياسيدى ، وكان اسمى وقتئذ ايزابيلا لينتون . غير أننى تزوجت من مستر هيثكليف أخيرا ، فأحضرنى الى هنا ، باذنك طبعا !

« فسألنى ، وعيناه تقدحان شررا كذئب جائع : « هل عاد اذن ؟ »

- نعم .. لقد عدنا للتو ، ولكنه تركنى بجوار باب المطبخ ، وعندما أردت الدخول ، كان ابنك الصغير يقف حارسا للمكان ، واستطاع بمعونة كلب من نوع البولدوج أن يخيفنى حتى وليت هاربة ..

« فزمجر مضيفى الجديد ، قائلا : « لقد أحسن الوغد الجهنمى صنعا بالمحافظة على كلمته ! » .. ثم راح يحملق فى الظلام خلفى ، مؤملا أن يتبين هيثكليف ، وما لبث أن انطلق يغمغم طويلا بأقذع ألفاظ السباب ، والوعيد بما كان سيفعله لو أن « الشيطان » خدعه ، وأخلف وعده ، فلم يعد !

« وندمت على محاولتى الدخول من هذا المدخل الثانى ، وكنت أكاد أميل الى الفرار قبل أن يفرغ من سبابه ، ولكن قبل أن أستطيع تنفيذ تلك النية ، أمرنى بالدخول ، ثم أوصد الباب خلفى بعد أن أغلقه . وكانت بالحجرة نار عظيمة مشبوبة ، وكان ذلك كل مايضىء تلك الحجرة الفسيحة ، التى اكتسى بلاطها الأبيض لونا رماديا موحدا ! .. أما الأطباق اللامعة البراقة التى كانت تجتذب أنظارى عندما كنت أحضر

للزيارة وأنا بعد فتاة صغيرة ، فقد انقلب بريقها الى قتامة كئيبة بسبب ما علاها من قذارة وتراب ، شأنها فى ذلك شأن البلاط !

« وسألت هندلى ايرنشو عما اذا كان يجدر بى أن أدعو الوصيفة لترشدنى الى احدى حجرات النوم ، ولكنه لم يتعطف على بجواب ! .. كان يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، واضعا يديه فى جيوبه ، وقد بدا عليه انه نسى وجودى تماما . كان من الجلى أن شرود ذهنه قد بلغ من العمق والاستغراق ، كما كان مظهره ينم على عداء للبشر جميعا ، ما جعلنى أحجم عن محاولة ازعاجه مرة أخرى .

« ولا أخالك تدهشين يا ايلين مما اعترانى من شعور بالكآبة والأسى ، وأنا جالسة فيما هو أسوأ من الوحدة ، فى تلك الحجرة غير المضيافة ، أفكر فى أنه على بعد أربعة أميال فحسب يقع منزلى المحبوب البهيج ، الذى يضم كل من أحبهم على وجه الأرض ، وان المحيط الأطلسى قد يكون هو الذى يفرق بيننا ، بدلا من هذه الأميال الأربعة ، التى يستحيل على اجتيازها . ورحت أسائل نفسى أين أذهب لأنال قسطا من الراحة ؟ .. وكان حزنى ، الذى غلب كل حزن بجانبه — وأرجو ألا تخبرى بذلك ادجار او كاثرين — ينشأ من يأسى من العثور على شخص واحد يستطيع ، أو يود ، أن يكون حليفى ضد هيثكليف ! .. لقد كنت أنشد الملجأ والمأوى فى (مرتفعات ويذرنج) ، فى شىء من السرور والارتياح ، لأن ذلك الترتيب كان خليقا بأن يؤمننى من العيش معه على انفراد . ولكنه — وأأسفاه ! — كان يعرف الناس الذين سوف نعيش بينهم حق المعرفة ، فكان لا يخشى فضولهم وتدخلهم ..

« وقضيت وقتا طويلا أليما جالسة أفكر .. ودقت الساعة الثامنة ، ثم التاسعة ، ومع ذلك كان رفيقى لا يزال يروح ويغدو من أقصى الحجرة الى أقصاها ، وقد أحنى رأسه

فوق صدره ، واستغرق فى صمت موحش، لا تقطعه الا همهمة خافتة ، أو تنهد مرير يفلت من بين شفتيه بين وقت وآخر . وكنت ارهف سمعى عسى أن أتبين صوت امرأة فى الدار ، وأملأ هذا الوقت الطويل بالأحزان الضارية ، والتكهنات المروعة عما ينتظرنى من مستقبل مشئوم ، وما لبثت أن عجزت عن كتمانها ، فانطلقت من بين شفتى فى أنين ونواح لم أستطع قمعهما .. ولم أشعر بارتفاع صوتى الا عندما تمهل ايرنشو فى مشيته الرصينة أمامى ، وراح يحملق فى وجهى فى دهشة من يرانى لأول مرة ، فانتهزت فرصة استعادته شعوره وانتباهه ، وصحت :

ـ اننى متعبة من سفرى الطويل وأريد الذهاب الى الفراش .. فأين الوصيفة ، أو أية خادم أخرى ؟ .. ارشدنى اليها يا سيدى ما دامت لا تريد أن تحضر الى !

« فأجابنى : « لا توجد هنا وصيفات أوخادمات .. وعليك أن تعنى بنفسك ! » .. وعندئذ رحت أنتحب فى أسى ، وقد أخرجنى التعب والبؤس عن وقارى ، وقلت : « ولكن أين ينبغى أن أنام اذن ؟ »

ـ سوف يريك جوزيف حجرة هيثكليف .. افتحى هذا الباب ، فتجديه هناك .

« فلما هممت بأن أطيعه ، أمسك بى فجأة ، واستطرد يقول فى أغرب صوت سمعته : « كونى فتاة طيبة ، وأوصدى باب الحجرة بالمفتاح ثم ضعى المزاليج وراءه . اياك أن تغفلى ذلك ! »

« ولم أستسغ فكرة حبس نفسى مع هيثكليف فى حجرة واحدة بمحض رغبتى ، فقلت : « حسنا .. ولكن لماذا يا مستر ايرنشو ؟ » .. فأخرج من جيب صدريته مسدسا عجيب التكوين ، اذ كانت تتصل بماسورته سكين ذات حدين مرهفين ، يحركها لولب خفى ، ثم قال :

– انظرى .. ان هذه شديدة الاغراء لرجل يائس ! .. أليس كذلك ؟ .. اننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من الصعود الى الطابق العلوى كل ليلة ، وهذه فى يدى ، فأحاول فتح باب حجرته .. فلو وجدت الباب مفتوحا مرة ، فقد انتهى أمره ! .. اننى أفعل ذلك دواما ، حتى ولو كنت فى اللحظة السابقة مباشرة أفكر فى مئات الأسباب الكفيلة بأن أحجم عن هذه المحاولة ! .. وما من ريب فى أن شيطانا خبيثا لا يفتأ يستحثنى على احباط خططى ومشاريعى ، بتحريضى على قتله ! .. وانك لتناضلين هذا الشيطان عبثا مهما طال بك المدى ، فعندما يحين الوقت ، فان كل ملائكة السماء لن تستطيع انقاذه !

« ورحت أرمق السلاح فى فضول وامعان ، وقد طرأت على ذهنى فكرة بشعة فظيعة : فكم أكون قوية حصينة لو استطعت أن أحرز مثل هذه الأداة ! .. وأخذتها من يده ، ورحت أمر بأصابعى على النصل المرهف ، فبدت عليه الدهشة من ذلك التعبير الذى ارتسم على وجهى لحظة خاطفة . لم يكن فزعا ، وانما كان جشعا وتلهفا ! .. فأسرع باختطاف المسدس من يدى ، فى حرص الشحيح ، وأرجع السكين الى مكانها ، ثم أعاده الى مخبئه ، قائلا : « اننى لا أبالى أن تخبريه ، فدعيه يأخذ حذره ، واسهرى على حمايته ! .. وأرى أنك تعرفين سوء ما بيننا من صلات ، فان الخطر الذى يتهدده لم يفاجئك ولم يروعك ! »

« فسألته : « ما الذى فعله هيثكليف معك ، وبماذا أساء اليك ، حتى تنطوى له على هذا الحقد المروع ؟ .. الا يكون أكثر حكمة وتعقلا أن تأمره بمغادرة الدار ؟ »

« فهدر ايرنشو بصوت كالرعد القاصف : « كلا .. واذا اقترح أن يفارقنى ، فسوف يغدو جثة هامدة . ولو انك أغريته على هذه المحاولة ، فسوف تصبحين قاتلة ! .. هل

قضى على أن أفقد كل شيء ، دون أن تكون لدى الفرصة لاستعادته ؟ .. وهل قضى على هيرتون أن يعيش شحاذا ؟ آه ، يا للعنة ! .. أقسم أنني سوف أستعيد كل شيء ، وسوف آخذ ماله وذهبه أيضا . ثم بعد ذلك دمه ! .. أما روحه فستكون من نصيب الجحيم ! .. ولسوف يزداد لظاها سعيرا ، عشرة أضعاف ، عندما يحل بها هذا الضيف ! »

« .. ولقد سبق لك أن أطلعتني ، يا ايلين ، على طباع سيدك السابق . ومن الجلى أنه على حافة الجنون ، أو أنه كان كذلك ليلة الأمس على الأقل . وقد اقشعر بدني من البقاء قريبة منه ، ورأيت أن شراسة الخادم الوقح تعد سارة لى نسبيا . وكان قد عاود سيره المهموم ، فمضيت نحو الباب ، ورفعت المزلاج ، ثم فررت الى المطبخ .. فرأيت جوزيف منحنيا فوق الموقد ، يمعن النظر فى قدر كبيرة كانت تتأرجح فوقه ، بينما كان على المقعد بجواره قصعة خشبية ملأى بدقيق الشوفان . وكانت محتويات القدر قد بدأت تغلى، فتحول الى القصعة وهو يهم بدس يده فيها . وحدست أنه ربما كان يعد لنا العشاء ، واذ كنت شديدة الجوع ، فقد عزمت على أن يكون ذلك الطعام مما أستسيغ تناوله .. وهكذا صحت به ، وأنا أبعد القصعة عن متناول يده :

ـ سوف أعد ، أنا ، هذا الثريد ..

« ومضيت أنزع قبعتى وثوب الركوب الذى كنت أرتديه ، واستطردت قائلة : « لقد أشار على مستر ايرنشو ان أعنى بنفسى ، وسوف أفعل .. فلن أقوم بدور السيدة بينكم ، حتى لا أموت جوعا ! »

« فجلس جوزيف على مقعد بعيد، وراح يربت على جواربه المضلعة من ركبته حتى عقبه ، وهو يغمغم قائلا : « لعل هناك أوامر جديدة بعد ذلك ! .. واذا قدر لى أن أجد سيدة فوق رأسى، بعد أن اعتدت أخيرا خدمة سيدين، فعلى الراحة والهدوء

السلام ! .. اننى ما فكرت قط فى أن أرى يوما أضطر فيه الى ترك المنزل القديم ، ولكنى أخشى أن يكون الوقت قد حان لذلك ! »

« .. فلم أعر هذه المناحة أى التفات ، ومضيت مندفعة فى عملى ، وقد تنهدت اذ ذكرت زمنا كان ما أقوم به الآن خليقا بأن يبدو أضحوكة لطيفة .. ولكن سرعان ما اضطررت لطرد هذه الذكرى ، فان استعادة سعادتى الماضية أمام ناظرى كانت تسبب لى عذابا وشقاء لا قبل لى باحتماله . وكنت كلما اشتد خطر استحضار هذا الشبح من أعماق الماضى ، أسرعت فى تقليب الثريد ، ومتابعة قذف قبضات الدقيق فى القدر . وكان جوزيف يرقب طريقتى فى الطهى بسخط متزايد ، وما لبث أن صاح قائلا : « هيرتون ، انك لن تتناول عشاءك من الثريد الليلة يا بنى ! .. فلن يكون الا كتلا كبيرة جافة كقبضة يدى . ما هذا ؟ .. لو كنت فى مكانك لألقيت القصعة كلها بما فيها فى القدر ! .. ما شاء الله ! .. وما هذا الدق بالمغرفة ؟ .. من حسن الحظ أن قاع القدر لم يسقط فى النار ! »

« وأعترف أن الثريد عندما سكب فى الأطباق كان غليظا خشنا . كانت أربعة أطباق هى التى أعدت للعشاء ، كما أحضروا ابريقا كبيرا مملوءا باللبن الطازج ، أمسك به هيرتون وراح يشرب من فوهته ، واللبن يسيل من بين شفتيه الممدودتين .. فاعترضت ، ورغبت اليه فى أن يأخذ نصيبه فى قدحه ، مؤكدة أننى لا أستطيع أن أذوق طعاما أو شرابا تتبادله الأفواه بهذه القذارة . ولكن المهرج العجوز رأى أن يبدى شعوره بالاهانة البالغة التى لحقت به وبالأسرة من ملاحظتى الدقيقة ، فراح يردد القول فى تأكيد بأن « الصبى لا يقل طيبة » عنى ، و « لا يقل تهذيبا ونظافة » ، ويعجب كيف استطعت أن أظهر بهذه الخيلاء وهذا الغرور ! .. وفى

الوقت نفسه كان الوغد الصغير مستمرأ فى لعق اللبن ، وهو يحدجنى بنظرات نارية ملؤها التحدى ، وقد ترك لعابه يختلط باللبن فى الابريق !

« عندئذ قلت : « سوف أتناول عشائى فى حجرة أخرى .. أيوجد لديكم ما تسمونه حجرة الجلوس ؟ » .. فأجابنى ساخرا متهكما : « حجرة الجلوس ؟ .. حجرة الجلوس ؟ .. كلا ، لا توجد لدينا حجرات للجلوس !.. اذا كانت صحبتنا لا تروقك ، فهناك السيد اذهبى اليه . واذا لم يرقك السيد فها نحن تحت امرك ! »

« فأجبته قائلة : « سوف أصعد الى الطابق العلوى .. أرنى حجرة أجلس فيها . » .. وكنت قد وضعت طبقى فوق صحفة ، كما ذهبت بنفسى فأحضرت بعض اللبن النظيف ، فنهض جوزيف بعد تأفف وتذمر عظيمين ، وتقدمنى فوق الدرج ، حتى بلغنا الحجرات العلوية . وكان بين الحين والآخر يفتح بابا وينظر بداخل الحجرات التى كنا نجتازها ، وأخيرا رفع لوحا متداعيا من الخشب ، تصر مفصلاته صريرا قبيحا ، وقال :

ـ هاك حجرة تصلح لتناول عشاءك فيها ! .. وسوف تجدين كيسا من القمح فى الركن ، وهو كيس نظيف تماما .. ولكن اذا كنت تخشين اتلاف ثوبك الحريرى العظيم فانشرى منديلك فوقه واجلسى عليه !

« وكانت تلك (الحجرة) أشبه بجحر مصنوع من الخشب ، تفوح منه رائحة الحنطة والشعير القوية ، وقد كدست حول جدرانه زكائب هذه الغلال تاركة فراغا فسيحا فى وسطه .. فالتفت اليه ، وواجهته غاضبة ، وأنا أصيح به : « ما هذا يا رجل ؟ ليس هذا بالمكان الذى يصلح للنوم .. اننى أريد أن أرى حجرة نومى ! »

« فعاد يقول فى لهجته الساخرة : « حجرة النوم ؟ ..

لقد رأيت كل ما لدينا من حجرات النوم .. الا حجرتى » .. ثم أشار الى « الوكر » المجاور ، الذى لم يكن يختلف عن الأول الا فى خلو جدرانه من الزكائب نوعا ما ، وفى احتوائه على فراش عريض منخفض ، خال من الستائر ، على أحد طرفيه لحاف مصبوغ بالنيلة !

فقلت أجيبه : « وما حاجتى الى غرفتك ؟ .. أحسب أن مستر هيثكليف لا يقيم فوق سطح المنزل ، أليس كذلك ؟ » .. فصاح كأنما وقع على كشف جديد : « آه !.. أهى حجرة مستر هيثكليف التى تريدين ؟ .. أما كان بوسعك ان تقولى ذلك من أول وهلة ، حتى كنت أخبرك – بدلا من كل هذا الوقت الضائع – انها الحجرة التى لن تستطيعى رؤيتها بالذات ، لأنه يوصدها دائما ولا يسمح لمخلوق بأن يدخلها ، غيره ! »

« فلم أتمالك نفسى من القول : « ان لكم منزلا جميلا يا جوزيف ، يضم عشرة لطيفة سارة ! .. وما أظن الا أن الخلاصة المركزة لشر أنواع الجنون فى العالم قد اتخذت لها مستقرا فى عقلى يوم أن ربطت مصيرى بمصائرهم وقدرى بأقدارهم ! .. ولكن مهما يكن من أمر فان ذلك ليس موضع البحث الآن .. ان هناك حجرات أخرى ، فأناشدك الله واستحلفك بحق السماء أن تسرع فترشدنى الى مكان أقر فيه قليلا ، أينما يكن هذا المكان ! »

« ولم يجبنى بكلمة على هذا التوسل ، بل أخذ يهبط الدرجات الخشبية للسلم فى ضيق وتبرم حتى وقف أمام حجرة أدركت من وقفته ، ومن أثاثها الممتاز ، انها خير حجرات المنزل . كانت بها سجادة !.. سجادة جيدة ، غير أن نقوشها ورسومها كانت مطموسة تحت أكداس الغبار الملبدة . وكانت بها مدفأة لصق على الجدار فوقها ورق ملون ممزق يتدلى

قطعا وشرائح غير منتظمة .. وفراش عريض فاخر من خشب البلوط تحوطه ستائر فضفاضـة قرمزيه اللون من قماش ثمين وطراز حديث ، وان كان من الواضح انها عانت الكثير من سوء الاستعمال ، اذ كانت أطرافها العليا غير مشدودة ، بل تتدلى فى دوائر وقد نزعت من حلقاتها ، على حين كان القضيب الحديدى الذى يحملها ينحنى كالقوس على أحـد جانبى الفراش وقد تدلت الستائر منه تجرجر أذيالها على الأرض .. حتى المقاعد كانت تالفة ، وأكثرها مهشم تماما ! .. وكانت ثمة فجوات غائرة عميقة تشـوه ألواح الخشب الثمين التي تكسو الجدران ، وتدل على ارتطام اجسـام صلبة حادة بها ..

« وكنت أحاول أن أستجمع عزيمتى للدخول الى هـذه الحجرة والاستيلاء عليها ، عندما أعلن مرشـدى الأحمق أن « ها هنا حجرة السيد » .. وكنت وقتئذ قد برد طعامى ، وفترت شهيتى ونفد صبرى ، فأخذت ألح عليه فى أن يدلنى على مكان ألجأ اليه وأجد فيه وسائل الراحة .. فبدأ الشيخ المتدين يقول : « وأين بحق الشيطان ؟ .. ليرحمنا الله ! .. ليغفر لنا الله ! .. أين تريدين أن تتسكعى بحق الجحيم ؟ ! أنت أيتها العروس المتعبة ! .. لقد رأيت كل شىء الا حجرة هيرتون الصغيرة .. ولا يوجد فى المنزل بعد ذلك جحر صغير آخر تأوين اليه ! »

« وكان الغضب والضيق قد نالا منى ، فطوحت بالصحفة ومحتوياتها من يدى الى الأرض ، وجلست فوق قمة الدرج ، وأخفيت وجهى بين يدى ، وانخرطت فى البكاء .. بينما كان جوزيف يصيح :

ــ اخ .. اخ .. مرحى .. مرحى ! .. انك قد أحسنت صنعا !.. سوف يتعثر السيد الآن فى هذه الأوعية المحطمة ، وسوف نسمع منـه الكثير . سوف نسمع منـه ما ينبغى

وما لا ينبغى .. أنت أيتها الحمقاء الطائشة !.. انك تستحقين أن ينحل جسمك ويهزل من الآن حتى عيد الميلاد لالقائك نعم الله الثمينة تحت الأقدام فى غضبك الأحمق . ولكننى لا أكون أعرف شيئا ان استطعت انت اظهار هذا الخلق السيىء طويلا ! .. فهل تظنين أن هيثكليف سيسكت على هذه الفعال الطيبة ؟ ! .. ألا ليته يضبطك الآن متلبسة ! .. ليته يأتى ليرى ما فعلت !

« وهكذا ظل منطلقا فى تأنيبه لى ، بينما كان يهبط الدرج الى وكره فى الطابق الأسفل ، حاملا الشمعة معه ، وتاركا اياى فى الظلام ! .. وقد اضطرتنى فترة التفكير التى تلت هذه الفعلة الطائشة الى الاقتناع بأننى يجب أن أطامن من كبريائى وأن أكبح جماح غضبى ، وان اسارع الى ازالة آثار ما فعلت .. وما كدت أهم بالعمل ، حتى بعث لى القدر بمساعد غير متوقع ، فى شكل « ثروتلر » الذى عرفت فيه عندئذ ابن كلبنا القديم «سكالكر» ، وكان قد قضى فترة (الحضانة !..) فى « الجرانج » قبل أن يهديه أبى الى مستر هندلى . وأغلب الظن أنه عرفنى ، فقد مسح أنفه بأنفى على سبيل التحية ، ثم أسرع الى التهام الثريد مساعدة لى على تنظيف المكان من آثار تسرعى وطيشى .. بينما كنت أتنقل من درجة الى أخرى لأجمع قطع الفخار المحطمة ، وأمسح بمنديلى رشاش اللبن المتطاير فوق السياج .. وما كدنا نفرغ من مهمتنا ، حتى سمعت وقع خطوات ايرنشو فى الممر ، فأرخى مساعدى ذنبه وحشره بين فخذيه ، ثم التصق بالجدار خائفا ، على حين أسرعت أسترق الخطى الى أقرب باب الى فاختفيت بداخله .. وقد فشلت محاولة الكلب تجنبه ، كما أدركت ذلك من الجلبة الناشئة عن عدوه السريع ، ومن عوائه الطويل الأليم .. ولكننى كنت أسعد حظا ، فقد مر بالحجرة التى اختفيت فيها مر الكرام ، ومضى الى حجرته ثم أوصد بابها وراءه ..

وفى اللحظة التالية كان جوزيف يصعد مع هيرتون ليضعه فى فراشه .. وكانت الحجرة التى اتخذتها ملجأ لى هى حجرة هيرتون ، فلما رآنى الشيخ الفانى قال :

ـ ها قد وجدت حجرة لك ولكبريائك فى المنزل ، كما أرى . انها خالية ، ويمكن أن تتسع لكما معا ، وحاشا لله أن يكون ثالثكما فى مثل هذه الصحبة الشريرة !

« وتلقفت هذا الايعاز بسرور بالغ ، وما كدت ألقى بنفسى فوق أحد المقاعد بجوار النار ، حتى هومت ،ثم استغرقت فى النوم .. وكان نومى هادئا عميقا ، وان لم أستمتع به طويلا ، فقد أيقظنى مستر هيثكليف ـ وكان قد رجع لتوه من الخارج ـ ليسألنى ، بلهجته الرقيقة الحبيبة ، عما أفعله فى هـذا المكان . فأخبرته بسبب بقائى الى هذه الساعة المتأخرة ، وهو انه كان يحتفظ بمفتاح حجرتنا فى جيبه ! وكان لاستعمالى لضمير الجمع أثر رهيب ، كأننى ارتكبت اثما مميتا .. فقد راح يسب ويقسم أن الحجرة ليست حجرتى ، ولن تكون حجرتى يوما ما ، وانه سوف .. ولكنى لن أعيد على مسامعك الفاظه ، ولن أصف لك مسلكه المعتاد معى .. فهو شـديد البراعة والدهاء ، ولا يقر له قرار فى استثارة حقدى وكراهيتى .. وانى لتأخذنى الدهشة ويستولى على الذهول كلما فكرت فى أمره ، فتكون دهشتى من العمق بحيث تطغى على خوفى منه .. ولكنى أؤكد لك أن نمرا مفترسا أو أفعوانا ساما لا يمكن أن يثير فى نفسى ما يثيره هو من الرعب والفزع . وقد أنبأنى بمرض كاثرين ، واتهم أخى بأنه السبب فيه ، وانذرنى بأننى سوف أنوب عن ادجار فى مقاسـاة الألم والعذاب .. حتى يستطيع أن يضع يده عليه !

« اننى أكرهه ، أكرهه .. يا لى من تعسة شقية ! .. وكم كنت حمقاء طائشة ، ولكن حذار أن تلفظى بكلمة من ذلك لأحد

فى (الجرانج) .. وسوف أتوقع حضورك يوما بعد يوم .. وكل ما أرجوه ألا تتخلى عنى وتخيبى أملى ..

ايزابيلا »

الفصل الرابع عشر

ما أن فرغت من تلاوة تلك الرسالة ، حتى ذهبت الى السيد فأخبرته بأن أخته قد وصلت الى (المرتفعات) ، وانها ارسلت لى خطابا تعرب فيه عن أساها لما أصاب مسز لينتون، وعن رغبتها الحارة فى رؤيته ، ورجائها فى أن يرسل اليها معى ، فى أقرب وقت مستطاع ، ما يدل على صفحه عنها !

فقال لينتون : « صفحى عنها ؟ .. ليس لدى ما أصفح عنها من أجله يا ايلين .. ويمكنك أن تذهبى الى (مرتفعات ويذرنج) بعد ظهر اليوم ، اذا شئت ، وأن تقولى لها اننى لست غاضبا منها ، انما أنا آسف من أجلها ، حزين لأنى فقدتها .. سيما واننى لا أستطيع أن أعتقد البتة بأنها سوف تكون سعيدة . ومهما يكن من أمر ، فان ذهابى لرؤيتها لا يمكن أن يكون موضع تفكير ، فان فراقنا أبدى .. أما اذا رغبت حقا فى أن تسدى الى جميلا ، فدعيها تقنع الوغد الذى تزوجت منه بأن يترك البلاد ! »

فسألته متوسلة : « وهلا بعثت اليها برقعة صغيرة يا سيدى ؟ »

ـ كلا ، فلا حاجة بنا الى ذلك .. وان اتصالى بعائلة هيثكليف أمر لا يمكن تحقيقه ، كاتصاله بعائلتى ، ولن يكون له وجود قط ..

وقد أحزننى برود مستر ادجار كثيرا ، ورحت أكد ذهنى، على طول الطريق من (الجرانج) ، بحثا عن الوسيلة التى

أخفف بها من وقع كلماته ، عندما أرددها على مسامعها ! .. وكيف أهون من رفضه كتابة بضع كلمات يسرى بها عن ايزابيلا . وأحسب أنها كانت تترقب حضورى منذ الصباح ، اذ رأيتها تنظر من خلال سجاف النافذة ، بينما كنت أجتاز الطريق المؤدية الى الحديقة . فلما أومأت اليها برأسى محيية ، رأيتها تتراجع عن النافذة ، كأنما تخشى أن يراها أحد ! ودخلت البيت دون أن اطرق الباب ، فما رأيت فى حياتى منظرا أبشع ولا أفظع من المنظر الذى يبدو فيه منزلنا القديم المرح ! .. ولكن لا بد لى من الاعتراف بأننى لو كنت فى مكان السيدة الشابة لقمت ، على الأقل ، بكنس الأرض حول الموقد ، ولمسحت الموائد بقطعة من القماش .. ولكنها كانت قد تشبعت بروح الاهمال التى تسود كل من يحيط بها . وكان محياها الجميل شاحبا مصفرا ، يبدو عليه الضعف وقلة الاكتراث ، وشعرها مشعثا غير مرجل ، وقد تدلت بعض غدائره فى غير نظام ، بينما عقص باقيها حول رأسها فى اهمال . أما هندامها فيكفى أننى رجحت أنها لم تلمس ثوبها منذ مساء اليوم السابق ! .. ولم يكن هندلى هناك ، أما مستر هيثكليف فكان جالسا الى منضدة ، يقلب بعض الأوراق فى مفكرته ، ولكنه بادر الى النهوض عند ظهورى ، وسألنى عن حالى ، فى كثير من الود ، ثم قدم لى مقعدا . وكان هيثكليف الشىء الوحيد الذى يبدو فى هذا المكان نظيفا محترما ، حتى لقد خطر لى أن مظهره لم يكن يوما خيرا مما هو الآن !.. ولقد بلغ من عظم ما فعلته الأحداث من تبديل مركزيهما ، أنه كان يبدو فى نظر الغريب الذى لا يعرف منشأه ، كأنما ولد وربى فى وسط النبلاء والأشراف ، على حين أن زوجته كانت تبدو كأنها امرأة صغيرة نشأت وسط الأقذار والاهمال وسوء التربية !

وتقدمت ايزابيلا لتحيتى فى لهفة وقلق ، ومدت الى احدى

يديها لتتلقى الخطاب المنتظر ، فهززت رأسى .. ولكنها لم تفهم تلميحى ، وتبعتنى الى خزانة ثياب كنت أهم بأن أضع فيها قبعتى ، وهى تتوسل الى فى همس بأن أعطيها للتو ما أحضرته معى .. وقد حدس هيثكليف معنى مناوراتها ، فقال :

ـ اذا كان معك شىء لايزابيلا ، ولا بد أن يكون معك شىء لها يا نللى ، فاعطيه لها . ولا حاجة بك الى اعتباره سرا ، فلا أسرار بيننا ..

ورأيت من الأفضل أن أذكر الحقيقة من فورى ، فأجبت : « آه !.. ليس معى شىء البتة . وقد طلب الى سيدى أن أخبر شقيقته بأنها لا ينبغى أن تتوقع منه زيارة أو خطابا فى الوقت الحاضر .. وهو يبعث اليك ، يا سيدتى ، بحبه وتمنياته لك بالسعادة ، وصفحه عما سببت من أحزان ، ولكنه يرى أنه ينبغى بعد الآن قطع كل صلة بين أهل منزله وأهل هذه الدار ، تلك الصلة التى لا يرجى من قيامها أمل قط !

فارتجفت شفتا مسز هيثكليف رجفة طفيفة ، وعادت الى مقعدها بجوار النافذة . أما زوجها فقد وقف بجوار الموقد ، قريبا منى ، وبدأ يلقى على الأسئلة عن حالة كاثرين ، فأخبرته بما وجدت من الأليق أن أقوله عن أسباب مرضها ، ولكنه أمطرنى بوابل من الأسئلة المتلاحقة حتى انتزع منى الحقائق المتعلقة بمنشأ هذا المرض . وقد وجهت اليها اللوم الذى تستحقه ، لأنها هى التى جلبت ذلك كله الى نفسها ، ثم ختمت حديثى بالأمل فى أن يحذو حذو مستر لينتون ، ويتجنب أى تدخل فى شئون عائلته فى المستقبل ، سواء أكان للخير أم للشر .. قلت له :

ـ لقد بدأت مسز لينتون الآن تتماثل للشفاء ، ولكنها لن تعود الى حالتها الأولى قط ، بعد أن نجت من الموت بمعجزة . واذا كنت حقا تحترمها وترجو لها الخير ، فعليك أن تتجنب

اعتراض طريقها مرة أخرى . بل انه ليجدر بك أن ترحل عن البلاد نهائيا ، وهو أمر لن تأسف عليه قـط ، فان كاثرين لينتون الآن تختلف عن صديقتك القديمة كاثرين ايرنشو ، اختلافى عن هذه السيدة الشابة ! .. لقد تغير مظهرها تغيرا كبيرا ، وكذلك خلقها وطباعها . والرجل الذى يجد نفسه مضطرا الى عشرتها ، بحكم الضرورة ، لا يقيم أود عاطفته ، من الآن فصاعدا ، الا على ذكرى ما كانت عليه يوما من الأيام ، وبدافع من الانسانية والشعور بالواجب !

فاصطنع هيثكليف الهدوء ، وعقب على كلامى قائلا :

ـ من الجائز أن يكون الأمر كذلك . من الجائز حقـا ألا يجـد سيدك شيئا يتعلل به سـوى انسانيته وشـعوره بالواجب ، ولكن هل تتصورين أننى أدع كاثرين لانسانيته وواجبه ؟ .. انك قبل أن تغادرى هذا المنزل يجب أن تعدينى بتهيئة لقاء بينى وبينها . واعلمى انه سواء رضيت أنت أم أبيت ، فاننى سوف أراها حتما .. فماذا تقولين ؟

ـ أقول يا مستر هيثكليف أنه لا ينبغى لك أن تطلب الى ذلك . ولن تنال شيئا منه عن طريقى قط ، فان لقاء آخـر بينك وبين السيد سوف يقتلها حتما !

فاستطرد يقول دون أن يبالى باعتراضى :

ـ ربما أمكن تجنب ذلك بمساعدتك . أما اذا نشـأ أى خطر من وراء مثل هذا اللقاء ، أى اذا كان سيدك سببا فى تعكير صفوها مرة أخـرى ، فأحسبنى أكون على حـق لو مضيت معه الى أبعد الحدود . واننى ، يا نللى ، أرجو أن تكونى صـادقة معى فتخبرينى هل تتألم كاثرين كثيرا اذا فقدته ؟ .. فان الخوف من ايلامها هو الذى يغل يدى عن المساس به .. وهكذا ترين الفرق بين شعورى وشعوره : فلو كان فى مكانى ، وكنت فى مكانه ـ رغم أننى أمقته مقتـا أحال حياتى الى مرارة متصلة ! ـ لما رفعت عليه يدا . ربما

كنت لا تصدقين ما أقول ، كما هو ظاهر فى محيــاك ، ولكن ثقى أننى ما كنت لأحرمه من صحبتها طالما كانت راغبة فيها ! .. أما فى اللحظة التى تكف فيها عن التعلق به ، فانى أمزق قلبه تمزيقا ، وانهل من دمه حتى أرتوى !.. ولكن الى أن يحدث ذلك ــ (واذا لم تصدقينى فانك لا تعرفيننى حقا) ــ الى أن يحدث ذلك فانى أفضل أن أموت موتا بطيئا قبل ان امس شعرة واحدة من رأسه !

فقاطعته قائلة : « ومع ذلك فانك لا تتورع عن تحطيم كل أمل فى شفائها التام ، باقحام نفسك على ذاكرتها الآن ، بعد أن أوشكت على أن تنساك ، واقحامها هى فى دوامة جديدة من المتاعب والمنازعات ! »

ــ وهل تزعمين انها أوشكت على نسيانى ؟..أواه ياناللى ! .. انك تعلمين أن ذلك غير صحيح ، وانها لم تنسنى قط . وأنت تعلمين ــ كما أعلم ــ انها اذا فكرت فى لينتون مرة ، تفكر فى ألف مرة ! .. ولقد ظننت شيئا من هذا القبيل فى فترة من أشقى أيام حياتى ، وكان هذا الظن لا يفتأ يراودنى عندما عدت الى هذه الانحاء فى الصيف الماضى . ولكن ما من شىء يجعلنى أتقبل هذه الفكرة الفظيعة مرة أخرى ، الا أن أسمعها تؤكدها لى بنفسها . وعندئذ لن يكون لينتون شيئا فى ناظرى ، ولا هندلى ، ولا أى حلم من تلك الأحــلام التى طالما اشتهيتها .. عندئذ سوف ينطوى مستقبلى كله تحت كلمتين : الموت ، والجحيم .. فسوف يصبح وجودى كله جحيما اذا فقدتها ! .. ومع ذلك فقد كنت غرا أبله عندما تصورت لحظة انها تقدر تعلق ادجار بها أكثر مما تقدر تعلقى أنا بها .. واذا كان يحبها بكل ما فى كيانه الضئيل من قوة ، فلن يحبها فى مدى ثمانين عاما كحبى لها يوما واحدا ! وان لكاثرين قلبا عميقا كقلبى ، والأيسر أن تجمعى مياه البحر فى معلف الجواد هذا ، من أن يستأثر ادجار بعاطفتها كلها !

هراء ! .. انه لا يكاد يسمو درجة فى الاعزاز لديها عن كلبها أو جوادها ! .. انه لا ينطوى على شىء يجعله محبوبا ، مثلى ، فكيف تستطيع أن تحب فيه شيئا ليس من خصائصه ؟

فصاحت ايزابيلا فى اندفاع مفاجىء :

ـ ان كاثرين وادجار يتبادلان الحب كأى اثنين من الناس . وليس من حق أحد أن يتحدث عنهما على هذا النحو . كما اننى لا أستطيع السكوت على سماع أخى يبخس قدره الى هذا الحد !

فأجابها هيثكليف فى ازدراء :

ـ ان أخاك مولع بك أشد الولع أيضا ، أليس كذلك ؟ .. ومع ذلك فانه يتنكر لك ويتركك تهيمين على وجهك فى الدنيا تحت رحمة الأقدار ، فى سهولة عجيبة !

ـ انه لا يدرى شيئا عما أقاسيه من آلام ، لأننى لم أخبره بذلك ..

ـ اذن فقد أخبرته بشىء آخر .. لقد كتبت اليه ، أليس كذلك ؟

ـ لقد كتبت اليه لأخبره بزواجى ، وقد رأيت خطابى بنفسك ..

ـ ولم تكتبى شيئا آخر منذ ذلك الحين ؟ ـ كلا ..

فتدخلت قائلة : « ان سيدتى الشابة تبدو حزينة وفى حالة سيئة بسبب تغير حالتها . والظاهر أن حب « بعض الناس » قد تضاءل كثيرا بالنسبة اليها . وربما كان فى وسعى أن احدس من هم هؤلاء الناس ، ولكنى لن اسميهم ! »

فقال هيثكليف : « أحسب ان الذى تضاءل هو حبها هى ، فقد فسد خلقها حتى غدت مجرد امرأة مهملة مشاكسة . بل لقد تعبت سريعا من محاولة ادخال السرور على ، على نحو غير مألوف . وقد يصعب عليك تصديق ما أقول ، ولكنها في صبيحة يوم عرسنا نفسه كانت تبكي وتريد العودة الي

منزلها ! .. ولكنى سوف أريها كيف توطن نفسها على العيش فى هذا المنزل ، والرضى بما قسم لها فيه ، وسوف أعمل بوسائلى الخاصة على منعها من الحاق العار بى بتجوالها خارجه ! »

فأجبته قائلة : « حسنا يا سيدى . أرجو أن تدخل فى اعتبارك أن مسز هيثكليف اعتادت أن تجد من يعنى بها ويقوم بخدمتها ، وانها نشأت وربيت كابنة وحيدة مدللة يسارع الجميع الى خدمتها . لذلك ينبغى أن تحضر لها وصيفة ترعاها وتعمل على تنظيف المنزل وترتيبه . كما ينبغى أن تحسن معاملتها وأن تكون بها رفيقا ، فمهما كان رأيك فى مستر ادجار ، فانك لا تستطيع ان تشك فى قدرتها على العواطف القوية ، والا لما تركت الراحة والرفاهية والأصدقاء فى منزلها القديم وأتت راضية لتعيش معك فى برية موحشة كهذا المنزل ! »

— لقد هجرت ذلك كله تحت تأثير الأوهام التى صورتنى فى عينيها كبطل من أبطال القصص والروايات الغراميه ، متوقعة أن تجد من اخلاصى ووفائى وشهامتى ما يشبع رغباتها الى درجة غير محدودة . وان اصرارها الأحمق على اعتناق فكرة خيالية عن خلقى ، وتصرفها الأخرق على أساس تلك الأحاسيس التى كانت تنميها وتغذيها فى نفسها ، ليجعلنى انظر اليها كمخلوق ليست به ذرة من العقل . ولكنى أحسبها قد بدأت تعرفنى على حقيقتى أخيرا ! .. فلم أعد أرى منها تلك البسمات البلهاء ، ولا تلك الحركات السخيفة التى تشكل بها وجهها ، والتى كانت تثيرنى بها فى بادىء الأمر . كما لم أعد ألمح عليها ذلك العجز الأخرق عن تمييز ما اذا كنت جادا أم هازلا عندما كنت أبدى لها رأيى فيها وفى افتتانها بى ! .. ولقد كان جهدا باهرا من الفطنة وبعد النظر أن تكتشف أننى ما أحببتها قط ! .. فقد كنت أعتقد ،

يوما من الأيام ، أن أية دروس تتلقاها على يدى لا يمكن أن تكفى لكى تعى ذلك وتفهمه . ومع ذلك فيبدو أنها قد وعته الى حد ما ، اذ أعلنت لى هذا الصباح - كما لو كانت قد وقفت على اكتشاف مروع - أننى قد نجحت فعلا فى أثارة كراهيتها لى ! .. وهذا لعمرى عمل جبار يحتاج الى قوة خارقة كقوة هرقل ! .. ولو أمكن اتمامه لاستحق منى الشكر والحمد ! .. فهل بوسعى أن أثق فى تأكيدك هذا يا ايزابيلا ؟ أأنت واثقة حقا من انك تكرهيننى ؟ وهل لو تركتك وحدك يوما أو بعض يوم ، لا تعودين الى ضارعة باكية ؟ .. وأحسب انها كانت تود لو تظاهرت بالحنان والرقة أمامك يا نللى ، فان كشف الحقيقة عارية مجردة لمما يجرح كبرياءها وغرورها ، ولكنى لا أبالى لو عرف الناس جميعا أن الحب كان من جانبها وحدها ، وانني ما كذبت عليها أو تظاهرت بحبها قط . وليس فى وسعها أن تتهمنى بأننى أظهرت لها رفقا ولينا كاذبين خداعين ، فان أول شىء رأته منى عندما غادرت (الجرانج) هو أننى شنقت كلبها الصغير ، ولما توسلت الى أن أبقى عليه ، كانت أولى كلماتى التى نطقت بها اننى أعربت عن رغبتى فى شنق كل من يمت اليها بصلة ، الا شخصا واحدا ! .. ولعلها اعتبرت هذا الاستثناء منصبا عليها هى ! .. ولكن قسوتى ووحشيتى لم تثر الاشمئزاز فى نفسها ، وأحسب أن فى أعماقها اعجابا فطريا بها ، طالما ظل شخصها الغالى بمنأى عن الأذى ! .. والآن ، ألا ترين أن هذه الكلبة الذليلة الحمقاء قد بلغت أعلى ذرى السخف ، وأروع آيات الغباء عندما راودها ذلك الحلم الأخرق بأننى يمكن أن أحبها ؟ .. أخبرى سيدك ، يا نللى ، بأننى لم ألق قط فى حياتى بأسرها ، شيئا حقيرا خسيسا مثلها .. بل انها لتشين اسم لينتون . لقد كنت أخفف من قسوتى أحيانا - لأن التفنن كان يعوزنى فى استنباط وسائل تعذيبها -

فكنت أتراخى فى اختبار أقصى ما يبلغه احتمالها ، ومع ذلك كانت تزحف على ركبتيها فى خضوع وتذلل . ولكن احبريه أيضا أن يريح قلبه الأخوى وسلطته القضائية ، فاننى ألتزم حدود القانون بدقة بالغه ، متجنبا حتى هـذه اللحظه كل ما يعطيها الحق فى طلب التفرقة بيننا . والأكثر من ذلك أنهـا لن تشكر أحـدا على ابعادها عنى ، ولـكنها اذا رغبت فى الذهاب ، فعلى رسلها !.. فان المضايقات التى يثيرها محضرها النكد ، تطغى على المتعة المشتقة من تعذيبها ..

فقلت له : « هذا يا مستر هيثكليف كلام رجل مجنون ، وأغلب الظن ان زوجتك قد اقتنعت بجنونك ، ولهذا السبب احتملت عشرتك حتى الآن ! أما وقد قلت الآن ان لها الخيار فى الذهاب ، فلا شك فى أنها سوف تفيد من هذا التصريح .. وأحسب يا سيدتى أنك لست مفتونة مسلوبة اللب بحيث تبقين معه بملء اختيارك ، أليس كذلك ؟ »

فانبعثت ايزابيلا تقول ، وقد تطاير من عينيها شرر الحقد والغيظ ، حتى لم يعد لدى أى شك ، عنـد رؤيتهما وفهم التعبير الذى ارتسم فيهما ، فى النجاح التام الذى كللت به محاولات زوجها ليجعلها تمقته :

ـ حذار يا ايلين ! لا تصدقى كلمة واحدة مما يقول .. انه شيطان كذوب ، بل وحش تجرد من صفات البشر ! .. لقد أخبرنى مرة قبل الآن أن بوسعى أن أتركه ، فأقدمت على المحاولة ، ولكنى لا أجرؤ الآن على اعادتها مرة أخرى ! .. فقط عدينى ياايلين ألا تذكرى كلمة من حديثه الشائن لأخى أو لكاثرين .. فمهمـا أدعى أمامك ، فانه انما يسـعى لاثارة اليأس والقنوط فى نفس ادجار ، ويقول انه تزوج منى حتى تكون له السيطرة عليه .. ولكنه لن ينال هذه السيطرة ، فسوف أموت قبل أن يحقق أمنيته هذه ! .. وشد ما أرجو ، وأدعو الله ، أن ينسى حذره الشيطانى مرة ، فيقتلنى .. فان

المتعة الوحيدة التى أتصورها ، هى أن اموت ، أو أراه ميتا !

فقال هيثكليف : « صه ! .. كفى هذا الهراء الآن . وعليك يا نللى أن تذكرى كلماتها هذه اذا مادعيت للشهادة فى المحكمة .. ثم تأملى هذه السحنة المقلوبة ! لقد قاربت الدرجة التى تعجبنى وتوافقنى !.. كلا ياايزابيلا ، انك لاتصلحين الآن لحماية نفسك ، ولا تؤمنين عليها . ولما كنت حاميك الشرعى ، فلا بد لى من حجزك تحت حراستى ، مهما كان هذا الالتزام بغيضا منفرا . والآن ، اصعدى الى الطابق العلوى ، فان لدى شيئا أريد أن أقوله لايلين دين سرا . كلا ، ليس هذا هو الطريق ، انما قلت لك اصعدى ! .. لماذا ؟ تعالى أريك طريق الصعود يا طفلتى العزيزة ! »

ثم أمسك بها ، وراح يجرها حتى طوح بها خارج الحجرة ، وعاد ليغمغم قائلا : « اننى خلو من الشفقة ، مجرد من الرحمة ! .. وكلما ازدادت الديدان تلويا وتوجعا ، ازداد حنينى الى سحقها واخراج أحشائها ! .. أرأيت الطفل عندما تنبت أسنانه ، وكيف يتلهف على العض والمضغ ؟ .. ان بى لهفة معنوية مماثلة ! .. ولكن طحنى وتحريق أسنانى يزدادان قوة وحمية ، بنسبة ازدياد الألم بالفريسة ! »

فقلت وقد اخذت قبعتى من المشجب : « وهل تفهم الكلمة الشفقة معنى ؟ .. بل هل شعرت قط فى حياتك بلمسة منها فى قلبك ؟ »

فقاطعنى قائلا ، وهو يرى عزمى على الرحيل : « ضعى هذه جانبا ، فلم يحن وقت انصرافك بعد . والآن اسمعى يا ايلين : اننى لا بد لى من أن أقنعك ، أو أرغمك ، على مساعدتى فى تحقيق ما عقدت عليه العزم من مقابلة كاثرين ، بغير امهال أو توان . واقسم لك أننى لا أضمر شرا أو ضرا ، وليس بى من رغبة فى اثارة المشاكل ، او اغضاب مستر لينتون أو اهانته .. فكل ما اريده هو أن أسمع من فم كاثرين

كيف تجد نفسها الآن ، ولماذا تعرضت لهذا المرض الشديد ، وأن أسألها ان كان بوسعي أن أؤدى لها خدمة أو اكون ذا نفع لها على اية صورة . لقد قضيت فى حديقة (الجرانج) ليلة الأمس ست ساعات متوالية ، وسوف أعود اليها الليلة أيضا . بل اننى لن أكف عن ارتياد المكان كل ليلة ، وكل يوم ، حتى أجد فرصة لدخوله . ولو التقى بى ادجار لينتون ، فلن أتردد فى أن أصرعه ، واكيل له من الضربات ما يكفى لبقائه بلا حراك مدة بقائى معها ! .. اما اذا تعرض لى خدمه ، فسوف أرغمهم على مغادرة المنزل مهددا اياهم بهذا المسدس. ولكن ألا ترين من الأفضل أن نمنع أسباب احتكاكى بهم او بسيدهم ؟ .. ان فى وسعك أن تفعلى ذلك فى يسر . سوف أنذرك بحضورى ، وعندئذ يمكن لك أن تهيئى لى سبيل الدخول ، دون أن يحس بى أحد ، بمجرد أن تجديها بمفردها ، ثم ترقبين المكان حتى أبرحه . وثقى أن ضميرك سيرتاح الى ذلك تماما ، لأنك فى الواقع انما تحولين دون وقوع أضرار كثيرة ! »

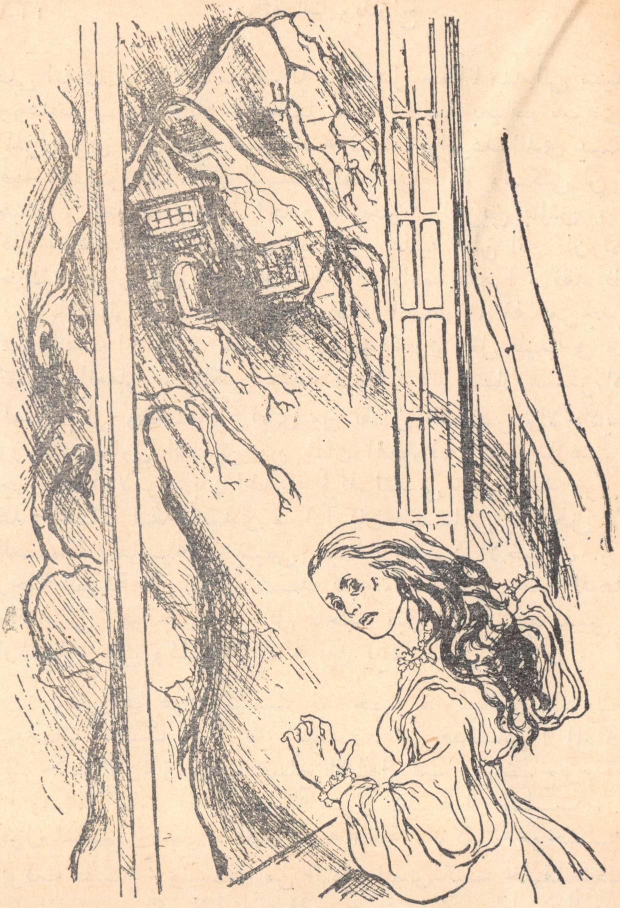
.. فاعترضت على أدائى دور الخائنة فى منزل مخدومى ، فضلا عن أننى بذلك انما أستحث قسوته وأنانيته على تدمير هدوء مسز لينتون وراحتها ، مرضاة له واشباعا لرغباته .. ثم أردفت قائلة :

ـ ان أى حادث عادى يحدث لديها اضطرابا أليما ، فقد أصبحت أعصابها كلها شديدة التوتر ، ولا يمكنها أن تحتمل المفاجأة . اننى واثقة من ذلك ، فلا تزدد الحاحا واصرارا يا سيدى ، والا اضطررت لاخبار سيدى بتدبيراتك ، وسوف يتخذ الاجراءات الكفيلة بحماية منزله وساكنيه من مثل هذا التطفل غير المرغوب فيه !

فصاح هيثكليف : « فى هذه الحالة سوف أتخذ أنا الاجراءات الكفيلة بسجنك هنا يا امرأة ! .. فلن تغادرى (مرتفعات

ويذرنج) حتى صباح الغد . وانها لخرافة سخيفة أن تزعمى أن كاثرين لا يمكن أن تحتمل رؤيتى . أما مفاجأتى لها ، فهذا أمر لا اوده ، وعليك ان تعديها للقائى ، وتسأليها الاذن لى بالدخول .. ثم انك تقولين انها لا تذكر اسمى قط ، وان أحدا لا يذكره أمامها .. فلمن تريدين أن تذكر اسمى مادام الحديث عنى يعد محرما فى منزلها ؟ .. انها تظنكم جميعا جواسيس زوجها عليها . أجل ، لست أشك انكم حولها كزبانية الجحيم ! .. وانى أحس فى صمتها ، كأى شىء آخر من أحوالها الآن ، مبلغ ما تعانيه هناك وتشعر به . وأنت تقولين انها غالبا ما تبدو قلقة لا تستقر على حال من اللهفة والتوجس ، فهل يعد ذلك دليلا على الهدوء الذى لا تريدين منى أن أعكر صفوه ؟ .. وقد تكلمت عن عقلها المضطرب ، فكيف يمكن أن تكون غير ذلك ، بحق الشيطان ، وهى تقاسى هذه العزلة المروعة ؟ .. ثم ذلك المخلوق التافه الحقير الذى يرعاها بدافع من الواجب والانسانية .. من الشفقة والاحسان ! .. ان بوسعه أن يغرس شجرة بلوط فى أصيص زرع صغير ، ويتوقع منها أن تنمو وتترعرع ، اذا تصور انه يستطيع أن يرد اليها قواها وصحتها فى تربة رعايته التافهة الضحلة . والآن ، دعينا ننتهى من الأمر حالا ، فهل تفضلين البقاء هنا ، وتتركينني أشق طريقى الى كاثرين فوق جثث لينتون وخدمه ؟ .. أم تكونين صديقتى ، كما كنت دائما حتى الآن ، فتفعلين مارجوتك أن تؤديه لى ؟ .. ولكن عليك أن تختارى أحد الطريقين على الفور ، لأننى لا أرى سببا يدفعنى الى التردد والتباطؤ دقيقة أخرى اذا كنت تصرين على التشبث بعنادك وسوء خلقك ! »

حسنا .. لقد ظللت أجادله وأتوسل اليه طويلا ، يامستر لوكوود ، ورفضت رفضا قاطعا كل ماطلبه منى أكثر من خمسين مرة ! .. ولكنه أرغمنى أخيرا ، بعد جدال طويل ،



« .. وهبطت من الفراش مسرعة ـ قبل أن أستطيع منعها ـ فاجتازت الحجرة وهى تترنح فى مشيتها ، ففتحت النافذة وأطلت منها .. غير مبالية بالهواء المثلج الذى كان يمزق كتفيها كسكين حادة .. » (صفحة ١٩٤)

على اتفاق بيننا ، فتعهدت له بأن أحمل خطابا منه الى سيدتى ، ووعدته ـ فى حالة موافقتها ـ بأن أبلغه بغياب سيدى عن المنزل ، فى أول مرة يغيب عنه فيها ، والموعد الذى يستطيع فيه الحضور ودخول البيت كيفما شاء .. ولكنى لن أكون هناك ، كما أن زملائى الخدم سيخلون الطريق بالمثل . فهل كان مافعلته خطأ أم صوابا ؟.. أغلب الظن انه كان تصرفا خاطئا ، وان كان من ناحية أخرى نافعا مثمرا ، فقد ظننت أننى بامتثالى لرغباته انما أحول دون انفجار الموقف من جديد . كما ظننت أن ذلك اللقاء قد يحدث رد فعل طيب فى مرض كاثرين العقلى . ولكنى عدت فتذكرت انتهار مستر ادجار الصارم لى وتحذيره اياى من نقل القصص والأحاديث . ورحت أحاول التهوين من شأن المخاوف التى تنازعتنى من جراء هذا الأمر ، بأن أخذت أؤكد لنفسى ، مرة بعد مرة ، ان هذه الخيانة لثقة سيدى ـ اذا كان مسلكى يستحق هذه التسمية القاسية ـ ينبغى حتما أن تكون الأخيرة . وكانت رحلة العودة الى الدار أشد كآبة وحزنا من رحلة الذهاب ، وانتابتنى الهواجس من كل ناحية قبل أن أقنع نفسى ، أو ارغمها ، على وضع الرسالة بين يدى مسز لينتون .

« ولكن ها هوذا كينيث قد حضر ، وسأنزل اليه لأخبره بتقدمك الحثيث فى طريق الشفاء . أما قصتى « المملة » ، فلنرجئها الآن ، وسوف تصلح لقطع الوقت فى صباح يوم آخر »

وبينما كانت المرأة الطيبة تنزل لاستقبال الطبيب ، كنت أقول لنفسى : أجل ، انها قصة مملة ، وكئيبة موحشة فى الوقت نفسه ، وليست من النوع الذى كنت خليقا باختياره لتسليتى . ولكن لابأس ، فلسوف أستخرج أطيب العقاقير من أعشاب « مسز دين » المريرة ! .. ولكن على ـ قبل كل شىء ـ أن أحذر ذلك السحر الذى يكمن فى عينى كاثرين

هيثكليف البراقتين .. فسوف أجد نفسى فى ورطة عجيبة لو سلمت قلبى لهذه الشابة الحسناء ، ثم تبين أن الابنة ليست الا صورة طبق الأصل من أمها !

الفصل الخامس عشر

مضى أسبوع آخر .. وازدادت بى الأيام اقترابا من الصحة الكاملة ، والربيع البسام . وقد فرغت من سماع قصة جارى كاملة ، فى جلسات مختلفة كانت مدبرة المنزل تختلسها بين مشاغلها العديدة الأخرى . وسوف أمضى فى سردها ، مستخدما كلماتها ذاتها ، مع قليل من التركيز ، فانها فى الواقع قصاصة بارعة ، ولا أحسبنى قادرا على تحسين أسلوبها .. قالت :

« فى ذلك المساء ، مساء زيارتى « للمرتفعات » ، كنت أحس بوجود مستر هيثكليف قريبا من المنزل ، كما لو كنت أراه بعينى ، فتجنبت الخروج من الدار ، لأننى كنت لا أزال أحمل خطابه فى جيبى ، وكنت راغبة عن سماع المزيد من الوعيد أو التأنيب . كنت قد قررت ألا أسلم الخطاب حتى يغادر السيد المنزل الى أى مكان ، لأنه لم يكن فى وسعى أن أحدس كيف يكون أثره على كاثرين . وكانت النتيجة أنه لم يصل اليها الا بعد انقضاء ثلاثة أيام كاملة . وكان الرابع يوم الأحد ، فأحضرت الخطاب الى حجرتها بعد ان ذهبت العائلة كلها الى الكنيسة ، ولم يبق فى الدار - عداى - الا رجل من الخدم ترك ليساعدنى فى الأعمال المنزلية . وكنا عادة نعمد الى اغلاق الأبواب خلال ساعات القداس ، ولكنى يومئذ انتهزت فرصة دفء الجو وروعته ، فتركتها مفتوحة جميعا ، كما اننى - وفاء بوعدى ، اذ كنت أعرف تماما من الذى سوف يقدم الينا - قلت لرفيقى أن السيدة تشتهى البرتقال ، وأن عليه أن يسرع الى القرية عدوا ليحضر بعضا منه ، على ان ندفع ثمنه فى اليوم

التالى . وما أن غادر البيت حتى صعدت الى الطابق العلوى . .

« كانت مسز لينتون تجلس فى فجوة النافذه كالمعتاد ، وترتدى ثوبا فضفاضا أبيض اللون ، وتغطى كتفيها بشملة خفيفه . وكان شعرها الغزير الطويل قد عقص مرفوعا فوق رأسها فى بداية مرضها ، أما الآن فكان ممشطا فى بساطه ، وتنسدل خصلاته فى تموجه الطبيعى فوق صدغيها وعنقها . وكان مظهرها قد تبدل تماما — كما أنبأت هيثكليف — ولكنها عند ما تكون هادئة فان هذا التبدل تبدو فيه مسحة من جمال ملائكى لا عهد لدنيا البشر بمثله ! . . وكان البريق المتألق فى عينيها قد خبا ، وبدت مكانه عذوبة حالمة حزينة . ولكن هاتين العينين لا توحيان بأنهما تنظران الى الأشياء المحيطة بها ، وانما تبدوان دائما وكأنهما تتطلعان الى ما وراءها ، تتطلعان الى بعيد وراء كل شىء ، حتى ليحق لك أن تقول انهما تتطلعان الى ما وراء هذا العالم كله ! . . أما شحوب وجهها — الذى اختفى هزاله ومنظره الهضيم منذ أن اكتسى بشىء من اللحم — والتعبير الغريب المرتسم فى محياها من أثر حالتها العقلية — فانهما وان كانا ينمان ، على نحو أليم ، عن الأسباب التى أدت اليهما ، فقد كانا يزيدان من الشعور بالأسى الذى يثيره مرآها فى النفوس . أما أنا فكنت أجد فيهما — وأحسب أن اى شخص ينظر اليها كان يجد ذلك مثلى — ماينقض اية أدلة ظاهرية أخرى على نقاهتها وقرب شفائها ، وانما يسمها بطابع الشخص الذى قضى عليه بالفناء !

« وكان على النافذة بجوارها كتاب مفتوح تحرك النسمات الهادئة أوراقه بين آن وآخر . وفى يقينى أن لينتون هو الذى وضعه هناك ، اذ أنها لم تكن تحاول قط أن تسلى نفسها بالقراءة ، أو تشغل نفسها بأى عمل آخر . وكم من ساعة كان يقضيها محاولا أن يثير انتباهها الى شىء مما كان موضع تسليتها فى الماضى . وكانت تعى ما يرمى اليه ، فاذا كانت فى

حالة طيبة ، فانها تحتمل محاولاته فى هدوء واستكانة ، مكتفية باظهار عدم جدواها بما ينبعث منها بين وقت وآخر من تنهد الضجر والسأم ، حتى تنتهى أخيرا الى ايقاف مساعيه بابتسامة حزينه ، أو قبلة خائرة . اما فى الحالات الأخرى ، فانها تتحول عنه فى نفور وعناد ، وتخفى وجهها بين راحتيها ، أو تدفعه عنها فى حنق وغضب .. فكان عندئذ يحرص على أن يتركها وحدها ، مدركا عن يقين أنه قد أخطأه الصواب فى مسعاه .

« وكانت أجراس كنيسة (جيمرتون) لاتزال تدق من بعيد ، كما كان الخرير الهادىء لقنوات الوادى يصافح الاذن وديعا رقيقا ، فكان بديلا جميلا لذلك الحفيف الذى لم يحن موعده بعد ، حفيف أوراق الشجر فى الصيف ، والذى كان يطغى على موسيقى القنوات عند ما تورق الأشجار حول (الجرانج) .. وكان خرير الماء يسمع دائما فى (مرتفعات ويذرنج) كلما سكن الهواء اثر انهمار المطر طويلا ، أو جريان الثلوج الذائبة فوق التلال . وكانت كاثرين تفكر فى (مرتفعات ويدرنج) ، وهى تصغى الى ذلك الخرير الموسيقى ـ ان كانت تفكر فى شىء أو تصغى الى شىء على الاطلاق ! ـ ولكن كانت فى عينيها تلك النظرة الجوفاء الغامضة التى وصفتها من قبل ، والتى لم تكن تعبر عن ادراك لشىء من الأشياء المادية سواء عن طريق السمع أم البصر ..

« ووضعت الخطاب فى رفق فى يدها المستقرة على ركبتها ، وقلت :

ـ هذا خطاب لك يا مسز لينتون .. وينبغى أن تقرأيه على الفور ، لأنه يتطلب ردا .. هل أفض أختامه ؟

« فلم تغير اتجاه نظراتها ، وقالت فى اقتضاب : « نعم .. »

« وفتحت الخطاب ، وكان موجز العبارة ، ثم استطردت قائلة : « اقرأيه الآن ! »

« غير انها جذبت يدها بعيدا ، فسقط الخطاب على الأرض

.. فالتقطته ثانية ووضعته فى حجرها ، ووقفت أنتظر حتى يروق لها أن تنظر اليه ، لكن ترقبى لهذه الحركة طال على غير جدوى ، حتى اضطررت الى متابعة كلامى قائلة : «هل تريدين أن أقرأه عليك يا سيدتى ؟ .. انه من مستر هيثكليف ! »

« فأجفلت ، ولاحت فى عينيها بارقة من عودة الذاكرة ، وتراءت فى محياها دلائل النضال فى سبيل تنظيم أفكارها . ثم رفعت الخطاب ، وبدا عليها أنها تتصفحه فى أمعان ، حتى اذا مابلغت الامضاء ، تأوهت فى مرارة . ومع ذلك فقد وجدت أنها لم تدرك دلالته تماما ، لأننى عندما رغبت اليها فى أن تسمعنى جوابها ، اكتفت بأن أشارت الى الاسم ، وراحت تتفرس فى وجهى فى لهفة حزينة متسائلة .. فحدست حاجتها الى من يشرح لها الأمر ، وقلت : « حسنا .. انه يود أن يراك .. وهو الآن فى الحديقة ، يتلهف على معرفة الاجابة التى أحملها اليه .. »

« وكنت قد لاحظت أثناء كلامى أن كلبا ضخما ـ كان يقبع تحتنا فى الحديقة مستلقيا فى استرخاء فى أشعة الشمس الساطعة فوق العشب الأخضر ـ قد نصب أذنيه فجأة ، وبدأ يهم بالنباح ، ولكنه مالبث أن أرخاهما وهو يعلن ، بهزات ذيله ، عن مقدم شخص لا يعده غريبا عن المكان .. ومالت مسز لينتون الى الأمام ، وهى ترهف السمع ، وقد حبست أنفاسها . وفى اللحظة التالية سمعت وقع أقدام تعبر الردهة . كان المنزل المفتوح من قوة الاغراء لهيثكليف بدخوله ، بحيث لم يستطع مقاومته .. وأغلب الظن أنه حسبنى قد نكثت بعهدى له ، فصمم على الاعتماد على جرأته ! .. وكانت كاثرين متعلقة الأنظار بباب حجرتها ، فى لهفة واشتياق شديدين . غير أن القادم لم يصب الحجرة الصحيحة فى بادىء الأمر ، فأشارت الى أن أستقبله ، ولكنه اهتدى اليها قبل

أن ابلغ البـاب . وفى خطوات وثابة ، كان يقف الى جانبها ، ويضمها الى صدره فى قوة !

« ولقـد لبث أكثر من خمس دقائق لا ينطق بكلمـة ، ولا يرخى ذراعيه عن احتضانها ، وقد راح فى خلالها يمطرها بعدد من القبلات أحسب انه لم يمنح أحداً أكثر منه فى حياته قط من قبل ! .. ولكننى اشهد ان سيدتى هى التى قبلته أولا . ورأيت فى جلاء أنه لم يستطع احتمال النظر اليها ، لفرط ألمه الصارخ . كان قد أدرك ـ كما أدركت أنا ـ منذ ان وقعت أنظاره عليها ، انه لم يكن ثمة أمل فى شفائها ، وانه قد قضى عليها بالموت ، لاشك فى ذلك ولا ريب !

« وكان أول مانطق به ، هو أن راح يهتف فى لوعة دون ان يحاول اخفاء يأسه وأساه : « أواه يا كاثى !.. أواه ياحبيبتى ! .. كيف أستطيع احتمال ذلك ؟ » .. وكان عندئذ يحـدق النظر اليها فى امعان شديد ، بحيث ظننت أن تركيز نظراته سوف يجلب البكاء الى عينيه.. ولكنهما كانتا تتقدان بالعذاب والألم ، وقد تحجرتا فلا تنديان بالدموع .. فأسندت كاثرين كتفيها الى ظهر المقعـد ، وراحت تبادله نظرته وقـد قطبت حاجبيها . كان مزاجها أشبه بدوارة الريح ، لأهوائها الدائمة التقلب والتغير .. وما لبثت ان قالت :

ـ وماذا الآن ؟ .. لقـد حطمتمـا قلبى ، أنت وادجار ، ياهيثكليف !.. ثم تأتيـان كلاكما تتبـاكيان وتنعيـان على مافعلتماه بى ، كأنكما انتما اللذان تستحقان الاشفاق والرثاء .. ولكننى لن أشفق عليك أو أرثى لك ! لست أنا التى تفعل ذلك . لقـد قتلتنى ، وأحسـبك أفلحت فى ذلك . يا لله ! ماأقواك ! .. ترى كم من السنين تنوى أن تعيشها بعد أن أرحل ؟

« وكان هيثكليف يركع على احـدى ركبتيـه بجـوارها ليستطيع احتضانها ، فحاول النهوض، ولكنها أمسكت بشعره

وتشبثت به لتبقيه فى مكانه ، ثم استطردت تقول فى مرارة :
« شد ما أود أن أظل ممسكة بك حتى نموت معاً ! .. ولن أبالى بما تعانيه من الم .. بل لست أبالى شيئا بآلامك جميعا . ولماذا بربك لاتتعذب ولا تتألم ؟ .. لقد تعذبت أنا وذقت ألوان الألم .. ثم هل تراك تنسانى ؟ .. هل ستكون سعيداً عندما أكون تحت اطباق الثرى ؟ هل تراك تقول بعد عشرين عاما :
« هذا قبر كاثرين ايرنشو . لقد أحببتها منذ عهد بعيد ، وشقيت بفقدها ، ولكن ذلك قد مضى وانقضى .. فقد أحببت الكثيرات منذ ذلك الحين ، وأطفالى الآن أحب الى نفسى مما كانت هى فى يوم من الأيام . وعندما تحين ساعتى ، فلن يسرنى أنى ذاهب اليها ، بل سوف يسوؤنى أن أضطر الى تركهم ! »
.. هل هذا ماستقوله يا هيثكليف ؟ »

« فانتزع رأسه من قبضتها فى عنف ، وكانت أسنانه تصطك وهو يصيح : « بربك لاتعذبينى حتى يصيبنى الجنون كما أصابك ! »

« كان الاثنان ، فى نظر المشاهد العادى ، يمثلان صورة غريبة مخيفة .. وكان يخلق بكاثرين ان تقدر أن السماء سوف تكون منفى رهيبا لها ، مالم تطرح عنها — مع جسدها الفانى — نفسيتها المعنوية أيضا .. فقد كانت أساريرها الآن تحمل طابعا من الحقد والضغينة فى وجنتيها الشاحبتين ، وشفتيها الباهتتين ، وعينيها اللتين تتقدان بشرر الانتقام ! .. وكانت تطبق أصابعها على خصلة من غدائره التى كانت تمسك بها . أما رفيقها فقد اتكأ ، عند نهوضه ، على احدى يديه ، وأمسك بذراعها بالأخرى ، فلما رفع يده عنها أدركت أن حصيلته من الرقة التى تستلزمها حالتها كانت من القلة بحيث كان على بشرتها الشاحبة أربعة خطوط زرقاء عميقة ! .. واستطرد يقول فى وحشية :

— هل تملكك شيطان حتى تخاطبينى على هذا النحو وأنت

مشرفة على الموت ؟ .. وهل قدرت أن كلماتك جميعا سوف تظل مطبوعة فى ذاكرتى ، ولا تفتأ تحفر فيها وتزداد عمقا بعد أن تكونى قد تركتنى ؟ .. انك لتعلمين مدى كذبك عند ما تقولين اننى قتلتك . وانك لتعلمين ، يا كاثرين ، اننى أستطيع أن أنساك اذا ما استطعت أن انسى كيانى ووجودى .. افلا يكفى أنانيتك الجهنمية انك بينما تنعمين بالراحة والسكينة ، سوف أتلوى أنا فى عذاب الجحيم ؟

« فأجابت كاثرين فى أنين أليم : « ولكنى لن أنعم بالراحة أو السكينة » .. وعادت الى الشعور بضعفها البدنى عند ما أخذ قلبها يخفق فى عنف ، وفى ضربات غير منتظمة كانت ترى وتسمع من بعد ، من جراء الانفعال الشديد الذى استبد بها .. فكفت عن الكلام ريثما انقضت تلك الأزمة ، ثم استطردت تقول فى رقة :

— اننى لا أتمنى لك عذابا أشد مما أقاسيه يا هيثكليف . كل ما أتمناه هو الا نفترق قط . ولو ضايقتك وأكربتك كلمة من كلماتى فيما بعد ، فاعلم اننى أحس هذا الكرب نفسه فى قبرى .. فاصفح عنى ، من أجل خاطرى ! .. تعال هنا واركع بجانبى ثانية . انك لم تسىء الى فى حياتك قط . واذا أمعنت فى غضبك على ، فان ذلك سوف يكون أسوأ ذكرى لك ، بما يفوق ذكرى كلماتى العنيفة . هلا أتيت الى جانبى ؟ .. تعال .. تعال !

« فعاد هيثكليف ثانية ، ولكنه وقف خلف مقعدها ، وانحنى فوق ظهر المقعد قليلا ، الى الحد الذى لا يمكنها معه أن ترى وجهه المتقع من التأثر والانفعال .. وأدارت رأسها الى الوراء لتنظر اليه ، ولكنه لم يكن ليسمح لها بذلك .. فقد تحول بغتة ، وسار نحو المدفأة ، حيث وقف صامتا وقد أدار ظهره نحونا .. وتبعته نظرات مسز لينتون فى ترقب وارتياب .. وكانت كل لحظة تمر توقظ فيها

أحاسيس جديدة .. فلما طال الصمت ، واستطالت نظراتها ، استطردت تخاطبنى فى نبرات مليئة بمرارة الخيبة :

ــ آه ! .. أرأيت يا نللى كيف أنه لا يريد ان يرق لى لحظة ليحول بينى وبين القبر ! .. هذا هو مبلغ حبه لى !.. حسنا .. لا بأس .. ان هذا ليس هيثكليف الذى أعرفه ! .. ولكنى سوف أظل أحب هيثكليف الذى اعرفه ، وسوف آخذه معى فانه قطعة من روحى !

« ثم أضافت كأنما تفكر بصوت مسموع :

ــ ثم أن أشد ما يضايقنى الآن هو هذا السجن المحطم ــ جسدى ــ الذى أعيش فيه . لقد تعبت من طول احتباسى هنا .. وأود بصبر نافد أن افر الى ذلك العالم المجيد ، وان أظل هناك ابدا ، فلا اقتصر على النظر اليه من وراء غلالة من الدموع ، والحنين اليه من خلال جدران قلب مضنى ، وانما أبقى فيه وأعيش معه حقا ! .. ولعلك يا نللى تخالين انك أفضل منى واسعد حظا ، لأنك فى عنفوان قوتك وكامل صحتك ! ولعلك تأسفين من أجلى وترثين لحالى ! .. ولكن كل شىء سوف يتبدل عما قريب .. وسوف أكون أنا التى ارثى لحالك .. سوف اكون بعيدة عنكم اشرف عليكم جميعا من عل ..

واستطردت تحدث نفسها :

ــ كم أعجب من تباعده ، واحجامه عن الاقتراب منى ! .. أنا التى حسبته يرغب فى ذلك ويتمناه ! .. هيثكليف ، يا عزيزى .. ما ينبغى لك أن تكون غاضبا عبوسا الآن .. تعال الى يا هيثكليف !

وفى غمرة لهفتها وشوقها نهضت واقفة ، وهى تستند الى ذراع مقعدها .. وازاء هذه الدعوة الحارة ، استدار نحوها وقد لاحت فى أساريره امارات اليأس المرير . وكانت عيناه الواسعتان تنديان بالدموع ، وتحدجانها بنظرات وحشية ، وصدره يعلو ويهبط فى رجفات متتابعة .. ولبثا لحظة وقد

جمد كل منهما فى مكانه .. ولم أر كيف التقيا بعد ذلك ، ولكن كاثرين وثبت الى الأمام ، فتلقاها بين ذراعيه ، والتقيا فى عناق طويل ظننت أن سيدتى لن تخلص منه على قيد الحياة قط .. والواقع أنها بدت فى عينى كأنما فقدت الشعور .. وألقى هو بنفسه على أقرب مقعد اليه ، وهو يحملها بين يديه ، فلما اقتربت فى عجلة لأتبين ان كانت مغشيا عليها ، كشر عن أنيابه فى وجهى ، وانبثق الزبد من فمه كالكلب المسعور ، وراح يضمها الى صدره فى غيرة بشعة .. ولم أعد أشعر بأننى فى رفقة مخلوق من البشر مثلى ، وكان من الواضح انه لن يفهمنى مهما خاطبته وقلت له .. وهكذا انتحيت جانبا وأمسكت لسانى ولذت بالصمت فى حيرة شديدة ..

وما لبثت أن سكن جأشى قليلا عندما رأيت كاثرين تبدر منها حركة صغيرة .. فقد رفعت يدها لتجذب اليها عنقه ، وتلصق خدها بخده وهو يحتضنها .. بينما راح بدوره يمطرها بقبلات جنونية ، وهو يقول فى ضراوة :

— لقد علمتنى الآن كيف كنت قاسية يا كاثى .. قاسية ومنافقة ! .. فلماذا احتقرتنى ؟ لماذا خدعت قلبك وغدرت به ؟ .. انك لن تسمعى منى كلمة واحدة تسرى عنك ، فانك تستحقين ذلك .. أنت التى قتلت نفسك .. أجل .. لك أن تقبلينى ، وأن تذرفى ما شئت من الدموع .. ولك أن تنتزعى منى القبلات والعبرات .. فانها سوف تلفحك بنارها .. وسوف تلعنك بكل قطرة فيها ! .. لقد كنت تحبيننى .. فبأى حق ، اذن ، هجرتنى ؟ .. بأى حق تخليت عنى من أجل وهم تافه شعرت به نحو لينتون ؟ .. فلا الشقاء أو الهوان أو الموت ، ولا اى شىء مما يمكن أن يصيبنا به الله أو الشيطان ، كانت لتستطيع أن تفرق بيننا .. ولكنك فعلت ما تعجز عنه كل هذه القوى ، وفعلته بملء ارادتك .. اننى لم أحطم قلبك . أنت التى حطمته بيدك .. وعندما حطمته ،

حطمت قلبى معه ! .. انك تريننى قويا متين الأسر ، ولكن ذلك لتعس حظى .. فهل تظنيننى أتمنى الحياة طويلا ؟ .. وأى نوع من العيش ذلك الذى يمكن أن احياه ، بينما أنت .. آه ! ياالهى ! .. أتراك أنت تتمنين العيش بينما روحك فى قبر من القبور ؟

فشرقت كاثرين بدموعها ، وبأنينها ، وقالت :

ـ دعنى وحدى .. دعنى وحدى .. اذا كنت قد أخطأت ، فهأنذا أكفر عن خطئى بالموت . وهذا فوق ما يكفيك ! .. لقد هجرتنى ، أنت أيضا .. ولكنى لن اعاتبك او اعنف عليك .. اننى أصفح عنك .. فاصفح عنى !

ـ ما أصعب الصفح وانا انظر الى هاتين العينين ، وأتحسس هاتين اليدين الناحلتين ! .. قبلينى ثانية ، ولكن لا تدعينى أرى عينيك ! .. لقد غفرت لك كل ما فعلته بى .. فاننى أحب قاتلى ! .. ولكن قاتلك أنت !.. كيف يمكننى أن احبه ؟

وساد الصمت بينهما ، واختفى وجه كل منهما فى وجه الآخر ، وغسلت دموع كل منهما وجه صاحبه .. وأغلب الظن أن البكاء كان متبادلا بينهما .. فان هيثكليف كان خليقا بأن يبكى فى مناسبة عظيمة كهذه ..

وبدأ القلق يتسرب الى نفسى ، كلما مضى الوقت .. فقد كان النهار يمر سراعا ، كما عاد الرجل الذى كنت قد بعثت به الى القرية ، من مهمته ، وبدأت أميز من بعد ، فى أشعة الشمس ناحية الغرب فوق الوادى ، جماعات من الناس تتكاثر وتتكاثف عند باب كنيسة (جيمرتون) ، فقلت :

ـ لقد انتهى القداس ، وسوف يكون سيدى هنا بعد نصف ساعة ..

فزمجر هيثكليف باللعنات والسباب ، وشدد من عناقه لكاثرين ، ولكنها لم تتحرك قط .. ولم تمض هنيهة ، حتى رأيت جمعا من الخدم يجتازون الطريق نحو الجناح الذى

يقع فيه المطبخ .. ولم يكن مستر لينتون يبعد عنهم كثيرا وهو يسير خلفهم .. وفتح بنفسه البوابة الكبيرة ، وأخذ يسير فى بطء واسترخاء قادما نحو المنزل .. ولعله كان يستمتع بهواء العصر الجميل الذى كان يترقرق كنسمات الصيف ..

عندئذ هتفت قائلة :

ـ ها هو ذا قد حضر .. فأسرع بالانصراف بحق السماء .. انك لن تجد أحدا على الدرج الأمامى .. فأسرع بالخروج ، واختف برهة بين الأشجار ريثما يدخل المنزل ، حتى لا يراك ..

فقال هيثكليف وهو يحاول الخلاص من بين ذراعى رفيقته :

ـ لا بد لى من الذهاب الآن يا كاثى .. ولكن اذا قدر لى أن أعيش فسوف أراك ثانية قبل ان يحين موعد نومك .. لن اذهب الى ابعد من خمس ياردات عن نافذة حجرتك ..

فتشبثت به بقدر ما سمحت لها قواها الخائرة ، وهى تجيبه :

ـ كلا .. لا ينبغى أن تذهب .. ولن تذهب ..

فتوسل اليها فى قلق :

ـ ساعة واحدة فقط !

ـ ولا دقيقة واحدة !

فازداد الدخيل القلق الحاحا ، وقال :

ـ بل لا بد لى من الذهاب .. سوف يأتى لينتون الى هنا حالا ..

ولقد كان بوسعه أن ينهض ، وبذلك يتخلص من قبضة أصابعها ، ولكنها ازدادت به تعلقا وازدادت أصابعها به تشبثا ، وقد لاح فى أساريرها عزم رهيب جنونى ، ثم صرخت قائلة :

ـ كلا .. لا تذهب .. لا تذهب ! .. انها المرة الأخيرة .. ولن يقتلنا ادجار .. هيثكليف .. اننى سوف أموت .. سوف أموت ..

فصاح هيثكليف ، وهو يغوص فى مقعده :

ـ يا لك من حمقاء ! .. ها هوذا .. صه يا حبيبتى ؛ اسكتى يا كاثرين !..سوف أبقى..واذا اطلق على الرصاص وأنا جالس فى مكانى ، للفظت انفاسى الأخيرة ، وشفتاى تباركانه !

وعادا الى عناقهما من جديد .. وسمعت وقع خطوات سيدى فوق الدرج ، فتصبب العرق البارد من جبينى ، واستبد بى الفزع ، وقلت لهيثكليف ضارعة :

ـ هل تنوى أن تصغى الى هذيانها ؟ .. انها لا تعرف ما تقول .. فهل تدمرها وتقضى عليها ، لأنها لم يعد لديها من العقل ما تحمى به نفسها ؟ .. انهض .. فما زالت فى الوقت فسحة لخلاصك .. ان هذا شر عمل شيطانى ارتكبته فى حياتك قط .. لقد قضى علينا جميعا .. السيد ، والسيدة ، والخادمة !

وكنت أعصر يدى ، وانشج بالبكاء .. وسمع مستر لينتون تلك الضجة ، فأسرع الخطى.. وفى غمرة اضطرابى وانفعالى، سررت اذ رأيت ذراعى كاثرين تتهاويان مسترخيتين بجانبها ، ورأسها يميل الى الأمام .. فقلت لنفسى :

ـ لقد أغمى عليها ، أو ماتت ! .. وذلك أفضل كثيرا .. ولكن الأفضل منه أن تكون قد ماتت ، حتى لا تبقى طويلا عبئا على من يحيطون بها ، مجلبة للشقاء اليهم !

وانقض ادجار على ضيفه المتطفل ، وقد امتقع وجهه دهشة وغضبا .. ولست ادرى ما الذى كان ينوى أن يفعله .. فقد وضع الآخر حدا لكل ما كان يمكن حدوثه ، بأن وضع بين يديه ذلك الجسد الساجى الذى يبدو خلوا من الحياة ، قائلا :

ـ انظر اليها .. واذا لم تكن شيطانا أو عدوا لدودا ، فأسعفها أولا ، ثم قل لى بعد ذلك كل ..

وأسرع يغادر المكان ، ويجلس في حجرة الجلوس .. ودعاني مستر لينتون ، فرحنا نبذل الجهود المضنية ، ونلجأ الى شتى الوسائل ، لنعيدها الى الصواب ، حتى نجحنا في اقامتها أخيرا .. ولكنها كانت ذاهلة اللب .. كانت تئن وتتأوه ، ولكنها لم تعرف أحدا .. ونسى ادجار ، في غمرة قلقه عليها ، صديقها البغيض .. أما أنا فلم أنس .. فانتهزت اول فرصة سنحت لى ، ومضيت اليه فرجوته ان ينصرف ، مؤكدة له أن كاثرين أحسن حالا ، وانه سوف يسمع منى في الصباح كيف قضت ليلتها .. فقال :

ـ انني لن أمتنع عن مغادرة الدار .. ولكنني سوف أبقى في الحديقة .. وأرجوك يا نللى ان تبرى بوعدك غدا .. وسوف تجدينني تحت أشجار الحور .. فاذا لم تفعلى فسوف أقوم بزيارة اخرى سواء أكان لينتون هنا ام لم يكن !

وألقى نظرة سريعة نحو باب الحجرة المنفرج ، واذ استوثق من أن ما ذكرته له كان يبدو صحيحا ، غادر المنزل في خطوات سريعة ، وأخلاه من محضره المنكود ..

الفصل السادس عشر

حوالى منتصف تلك الليلة ولدت كاثرين التي رأيتها في (مرتفعات ويذرنج) .. ولدت هزيلة ضامرة في الشهر السابع من حملها .. وبعد مولدها بساعتين ، لفظت الأم أنفاسها الأخيرة ! .. ماتت دون أن تسترد من الوعى مايكفى لأن تفتقد هيثكليف ، او تشعر بوجود ادجار .. وكان حزن هذا الأخير لما أصابه من الثكل ، أمرا يجل عن الوصف ، وتألم النفس للحديث عنه .. كما أظهرت آثاره بعد ذلك مدى عمقه في نفسه . وفي رأيى أن مازاد من فداحة المصاب لديه ، انه ترك بغير عقب من الذكور . وكان قلبى يعتصر حسرة وألما

لذلك ، وانا أتأمل اليتيمة الضعيفة ، فرحت أنحى باللائمة - فى نفسى - على لينتون العجوز الذى أوصى بأن تنتقل أملاكه ، اذا عرضت مثل هذه الحالة ، الى ابنته بدلا من حفيدته .. وهكذا جاءت الطفلة المسكينة ، فلم تلق من أحد ترحيبا ، ولم يهش لمولدها انسان .. فلو انها ماتت فى تلك الساعات الأولى لها فى الوجود ، لما اكترث لذلك أحد قط . وقد عوضنا هذا الاهمال فيما بعد ، ولكن المنكودة استهلت وجودها بغير صديق ، مثلما يخشى أن تختتمه !

وتسلل ضوء الصباح - الذى كان مشرقا بهيجا خارج الدار - من ثنايا مصاريع نوافذ الحجرة الصامتة ، فأضفى على الفراش وشاغلته وهجا رقيقا لينا : وكان ادجار لينتون يضع رأسه على الوسادة ، مطبق العينين ، ومحياه الناصع البياض يبدو - فى شحوب الموت الذى يعلوه - أشبه بالوجه الساجى الى جواره ، وقد تماثلا سكونا وجمودا .. ولكن أساريره كانت تنطق فى جمودها بالألم المضنى ، على حين كان وجه الراحلة يفيض سلاما ودعة . كان جبينها ناعما وضاء ، وأجفانها مطبقة ، وشفتاها تنفرجان فى ابتسامة هادئة .. وما أحسب أن ايا من ملائكة السماء كان يمكن أن يبدو اوفر منها جمالا .. ونالنى قبس من ذلك السكون المطلق الذى يحيط بها فى رقادها ، فما أحسست قط بأن عقلى عاش فى اطار أشد قداسة مما كان عليه عندما رحت أتأمل تلك الصورة الصافية من الراحة الالهية ! .. ورحت أرجع فى نفسى ، عن غير قصد ، صدى الكلمات التى نطقت بها منذ ساعات قلائل ، قلت : « انها بعيدة عنا تشرف علينا جميعا من عل .. وسواء أكانت لاتزال على الأرض ، أم أنها الآن فى السماء ، فان روحها قد رجعت الى مستقرها ومثواها عند خالقها » .

ولست أعرف ان كانت تلك صفة اختصصت بها ، ولكن الواقع أننى قلما أحس شيئا غير السعادة عند ما اقوم وحدى

بالحراسة فى حجرة يرفرف عليها الموت ، مالم يقاسمنى هذا الواجب شخص خرج به الحزن عن صوابه أو ملىء قلبه يأسا .. فانى أرى راحة وطمأنينة لاتستطيع الأرض ولا الجحيم أن تحطمهما ، وأحس باليقين فى عالم يأتى بعد ذلك ، لا نهاية له ولا ظلمات فيه .. تلك الأبدية التى يلجون أبوابهـا ، حيث لاتتقيد الحياة بحدود فى مدتها ومداها ، ولا الحب فى حنانه وروعته ، ولا السرور فى عنفوانه ووفرته .. وقد تبينت فى تلك المناسـبة مبلغ الاثرة والأنانية فى حب مثل حب مستر لينتون ، عندما يحزن على خلاص كاثرين السعيد !! .. ومن المحقق أن المرء قد يشك أحيانا ، بعد تلك الحياة المليئة بالعناد والمشاكسة والتهور التى كانت تحياها ، فيما اذا كانت تستحق أن تقاد أخيرا الى مرفأ السلام والطمأنينة .. ان المرء قد يشك فى ذلك فى سويعات التفكير الهادىء المجرد عن العاطفة ، لا فى ذلك الوقت ، أمام جثمانها .. فان السكينة التى كانت ترين على ذلك الجثمان المسجى ، بدت كأنما تضمن سكينة مماثلة للروح التى كانت تسكنه !

« ترى هل تعتقد ياسيدى أن مثل هؤلاء الناس يلقون السعادة فى العالم الآخر ؟ .. اننى أبذل الكثير فى سبيل معرفة ذلك .. »

ولكنى تنكبت الاجابة على سؤال مسز دين ، الذى أدهشنى وقتئذ كشىء أدنى الى الضلالة .. فاستطردت تقول :

« اننا لو اقتفينا سبيل كاثرين لينتون ، لما حق لنا أن نظنها سعيدة .. ولكننا سوف ندعها لخالقها .. كان السيد يبدو نائما ، فجازفت بمغادرة الحجرة بعد شروق الشمس مباشرة ، وتسـللت الى حيث الهـواء النقى المنعش خارج الدار .. وحسبنى الخدم قد خرجت لانفض عنى النعاس بعد حراستى الطويلة ، ولكنى فى الحقيقة انما خرجت لأرى مستر هيثكليف .. فلو انه مكث بين أشجار الحور الليل بطوله ، لما سمع شيئا

من الجلبة التى قامت فى (الجرانج) .. أللهم الا اذا كان قد سمع وقع حوافر جواد الرسول الذى بعثنا به الى (جيمرتون) .. ولو انه اقترب من الدار ، لأدرك من الأضواء المتنقلة هنا وهناك ، والأبواب الخارجية وهى تفتح وتغلق ، أن الأمر لم يكن على مايرام فى الداخل . وكنت أود أن أجده ، ومع ذلك كنت اخشى هذا اللقاء .. كنت أحس بشناعة الأنباء التى يجب أن أنقلها اليه ، وتمنيت ان ينتهى ذلك الموقف سريعا ، ولكنى لم أكن اعرف كيف اقولها له !.. ووجدته هناك ، على قيد خطوات من البستان ، مستندا الى شجرة عتيقة ، عارى الرأس ، ملبد الشعر بالندى الذى تجمع على الغصون المورقة حديثا ، والذى كانت قطراته تتساقط حوله .. وكان قد قضى فترة طويلة فى وقفته هذه ، لأننى رأيت طائرين يذهبان ويعودان ، وليس بينهما وبينه الا زهاء ثلاثة أقدام ، وقد انهمكا فى بناء عشهما ، ولا يريان فى قربه منهما الا مايريان فى كتلة من الخشب ، على حين انفلتا هاربين عند اقترابى ..

ورفع عينيه نحوى ، وقال :

ـ لقد ماتت !.. ولم أكن بحاجة الى انتظارك لأعرف ذلك .. ضعى منديلك هذا جانبا ، ولا تدعى دموعك ومخاطك يسيلان أمامى ! .. لعنة الله عليكم جميعا .. انها ليست فى حاجة الى شىء من دموعكم !

كنت أبكى رثاء لحاله بمثل ماكنت أبكى عليها .. فاننا أحيانا نشفق على مخلوقات تجردت من مثل هذا الشعور سواء بالنسبة للناس أو لأنفسها .. وعند ما وقعت أنظارى على وجهه للمرة الأولى أدركت أنه علم بالكارثة .. وطرات لى فكرة سخيفة ، هى أن قلبه قد غشيته السكينة فراح يصلى ، اذ كانت شفتاه تتحركان فى تمتمة صامتة ، وقد أحنى رأسه كأنما ركعت أنظاره على الأرض .. فقلت وقد كتمت شهقاتى وجفت عبراتى :

ـ أجل .. لقد ماتت .. وأرجو أن تكون قد ذهبت الى السماء ، حيث يمكن ان نلحق بها ، كل واحد منا ، لو أصغينا الى صوت النذير، وتركنا سبل الشر لنسلك سبل الخير ..

فسألنى هيثكليف فيما يشبه السخرية :

ـ وهل أصغت هى اذن الى صوت النذير ؟ .. هل ماتت أشبه بقديسة ؟ .. هيا .. قصى على كل ماحدث ، فى صدق ودقة .. كيف لقيت ..

كان يهم بأن ينطق باسمها ، ولكنه لم يستطع التلفظ به ، وكان وهو يضغط على شفتيه كأنما يصارع ، فى صمت ، حزنه المكنون ، متحديا ـ فى الوقت نفسه ـ أشفاقى عليه ورثائى له بنظرات نارية ضارية ، وعينين لاتطرفان .. وأخيرا اضطر، رغم صلابته ، الى البحث عن متكأ خلفه ، اذ انتهى ذلك الصراع بهزيمته وأخذت الرعدة تسرى فى بدنه حتى أخمص قدمه ، على الرغم منه .. ثم تابع القول :

ـ كيف لقيت نهايتها ؟

فقلت فى نفسى : « أيها التعس المسكين ! .. ان لك قلبا وأعصابا مثل ما لاخوانك من بنى البشر .. فلماذا تتلهف على اخفائها ؟ .. ان كبرياءك لن تخفى على الله ! .. وأنت انما تدفعها الى أن تظل تهصر قلبك وأعصابك ، حتى تنتزع منك عبرات الهوان والمذلة ! »

ثم أجبته بصوت عال :

ـ فى هدوء الحمل الوديع .. تنهدت ثم بسطت جسمها ، أشبه بطفل يصحو من نومه ، ثم يعود الى الاستغراق فيه ثانية .. وبعد خمس دقائق أحسست بقلبها يخفق خفقة واحدة ، ثم يسكن الى الأبد !

فسألنى مترددا ، كأنما يخشى أن تتضمن اجابتى أشياء لا يطيق سماعها :

ـ هل .. هل لم تذكر اسمى قط ؟

ـ انها لم تستعد حواسها ، ولم تعرف أحدا ، منذ أن فارقتها .. وهى ترقد الآن وعلى وجهها ابتسامة حلوة ، كأنما كانت خواطرها الأخيرة تسرح فى أيامها البهيجة الأولى .. لقد ختمت حياتها فى حلم رقيق ، وأدعو الله أن تقوم من الموت بمثل هذه الدعة فى العالم الآخر ..

فصاح فى انفعال مروع ، وهو يضرب الأرض بقدمه ، ويزمجر فى نوبة مفاجئة من العاطفة الجامحة :

ـ بل فلتقم فى عذاب الجحيم ! .. لماذا ؟ .. لقد كانت كاذبة حتى النهاية .. أين هى ؟ .. انها ليست هناك فى المنزل .. وليست فى السماء .. ولم يشملها الفناء .. فأين هى ؟ أواه ياكاثرين ، لقد قلت انك لا تبالين بآلامى جميعا . وأنا أدعو الله دعاء واحدا ـ سأظل أردده حتى يجف لسانى ـ فلا عهدت الراحة والسلام ، يا كاثرين ايرنشو ، مادمت حيا .. وقد قلت اننى قتلتك .. فلتلازمنى روحك اذن لتقض مضجعى ! .. ان روح المقتول لاتفتأ تحوم حول قاتله ، كما أعتقد .. والأشباح قد رؤيت تجوب الأرض ، فيما أعلم .. فكونى معى دائما ، على أية صورة تتراءين فيها .. وادفعى بى الى الجنون ! .. ولكن لاتتركينى فى هذه الهاوية ، حيث لا أستطيع أن أجدك معى .. آه ! .. يا الهى ! .. هذا شىء يقصر عنه النطق ! .. اننى لا أستطيع العيش بغير حياتى .. ولا أستطيع الحياة بغير روحى ..

ثم أخذ يضرب رأسه بجذع الشجرة الخشن ، ثم يرفع عينيه ويطلق عواء لا يشبه أصوات البشر فى شىء ، انما هو أشبه بعواء وحش كاسر يتمشى اليه الموت تحت طعنات المدى والحراب .. ولاحظت رشاشا من الدماء على لحاء الشجرة ، كذلك كان جبينه ويداه ملوثة بالدم .. والأرجح أن المنظر الذى شهدته لم يكن الا تكرارا لما كان يجرى خلال الليل .. ولكنه لم يثر فى نفسى رحمة أو شفقة ، وانما كان يخيفنى

ويروعنى .. ورغم ذلك فقد أنفت أن أتركه على هذه الحال.. ولكنه فى اللحظة التى استرد فيها من الوعى مايكفى لأن يدرك أننى أراقبه ، صاح بى فى صوت كقصف الرعد ، يأمرنى بالانصراف .. ولقد أطعته على الفور ، اذ كان مما تعجز عنه قدرتى أن أهدىء روعه او اسرى عنه ..

وحدد موعد جنازة مسز لينتون فى يوم الجمعة التالى لوفاتها .. وظل نعشها ، حتى ذلك الموعد ، مكشوفا وقد نثرت فوقه الزهور وأوراق الأشجار العطرية ، فى حجرة الاستقبال الكبرى .. وكان لينتون يقضى الأيام والليالى بجواره ، حارسا لا يغفل ولا ينام .. أما الشىء الذى خفى عن الجميع ، ماعداى ، فهو أن هيثكليف كان يقضى الليالى ، على الأقل ، فى الحديقة وقد حرم من الراحة كادجار .. ولم أكن على أى اتصال به ، ومع ذلك كنت أدرك رغبته وعزمه على الدخول ، اذا تهيأت له الفرصة المواتية .. فما أن حل مساء الثلاثاء ، وأسدل الظلام ستوره ، واضطر سيدى لفرط تعبه أن يأوى الى فراشه نحو ساعتين ، حتى مضيت ففتحت احدى النوافذ ، وقد تأثرت من مثابرته على البقاء فى الحديقة ، لأهيىء له فرصة يلقى فيها على وجه معبودته الشاحب نظرة وداع أخيرة .. ولم يغفل انتهاز هذه الفرصة ، فى حذر ولفترة قصيرة .. بل لقد كان من الحذر فى دخوله ، دون أى صوت أو جلبة ، بحيث ماكنت لأكتشف حضوره ، لولا أن وجدت الغطاء قد اختل نظامه حول وجه الجثة ، وان لاحظت على الأرض بجوار الفراش خصلة من الشعر الذهبى قدحزمت بخيط من الفضة، ماكدت أفحصها حتى أدركت أنه اخذها من نوط كان معلقا حول رقبة كاثرين .. كان هيثكليف قد فتح القلادة والقى بمحتوياتها على الأرض، ووضع بدلها خصلة من شعره الأسود .. ولكنى حزمت الاثنتين معا ووضعتهما فى القلادة سويا !

وقد دعى مستر هندلى ايرنشو لتشييع جثمان شقيقته

الى مقرها الأخير ، ولكنه لم يحضر ولم يرسل اعتذارا ! . وهكذا كانت الجنازة قاصرة ، فيما عدا زوجها، على المستأجرين والخدم فحسب .. أما ايزابيلا فلم يدعها أحد ..

ولقد دهش القرويون اذ رأوا ان كاثرين لم تدفن فى صحن الكنيسة تحت النصب المنقوش الخاص بآل لينتون ، ولا فى مقابر أهلها خارجه .. وانما دفن جثمانها فى قبر منفرد ، على سفح تل منحدر يغطيه العشب الأخضر، فى ركن قصى من فناء الكنيسة ، بجوار السور الذى كان منخفضا فى ذلك الموضع بحيث زحفت على القبر الأعشاب المتسلقة ونبات التوت البرى الممتدة من منطقة الأحراش والبرارى، حتى كادت تغطيه تماما ..

وفى البقعة نفسها يرقد زوجها الآن ، وعلى قبر كل منهما شاهد بسيط ، وقد أقيمت عند أقدامهما كتلة صماء من الحجر الأسمر لتميز موضع القبرين ..

الفصل السابع عشر

كان يوم الجمعة المشئوم ـ يوم وسدنا كاثرين الثرى ـ آخر عهدنا بالطقس الجميل ، طيلة شهر كامل .. ففى مساء ذلك اليوم انقلب الجو بغتة ، وهبت الرياح من الجنوب نحو الشمال الشرقى، فأخذت ترخي حملها من المطر الغزير بادىء ذى بدء ، ثم قطع البرد الصلبة ، وأخيرا رقائق الثلج الهشة الناصعة البياض .. حتى اذا أصبحنا فى الغداة ، كان من العسير أن يتصور انسان أننا قضينا ثلاثة اسابيع فى جو شبيه بأيام الصيف .. فقد اختفت الأقاحى والزهور البرية تحت ركام الثلوج المتدفقة ، وسكتت القنابر عن شدوها الصداح ، وذبلت اوراق الشجر الوليدة واسود لونها .. وهكذا طلع علينا ذلك الصباح باردا ، موحشا ، كئيبا ..

كان سيدي معتكفا في حجرته ، أما أنا فقد احتللت حجرة

الجلوس الوحيدة ، وحولتها الى دار للحضانة ! .. وكنت جالسة فيها ، وفوق ركبتى تلك الطفلة الشبيهة بدمية صغيرة لا تكف عن الأنين ، وقد أخذت اهدهدها واهزها يمنة ويسرة ، وأرقب بين الفينة والفينة رقائق الثلج التى كانت لما تزل تنهمر فوق افريز النافذة المجردة من الستائر، وترتفع فوقه طبقة بعد طبقة ، عندما فتح الباب ، ودخل شخص مبهور الأنفاس ، يضحك بصوت عال ! .. وقد طغى سخطى وغضبى على دهشتى لحظة قصيرة ، اذ حسبت القادم واحدة من الخدم ، وصحت بها منتهرة :

ـ حسبك وكفى ! .. كيف تجرؤين على اظهار طيشك ومجونك هنا ؟ .. ماذا يقول مستر لينتون اذا سمعك ؟..

فأجابنى صوت مألوف :

ـ أرجو المعذرة ! .. ولكنى أعلم أن ادجار فى فراشه الآن ، كما غلبنى الضحك ولم أستطع ايقافه ..

واذ نطقت المتحدثة بهذه العبارة ، تقدمت نحو المدفأة ، وهى تلهث بأنفاسها وقد وضعت يدها على جنبها .. وما لبثت أن استطردت بعد صمت قصير :

ـ لقد ظللت أجرى طول الطريق من « مرتفعات ويذرنج » ، الا حيث كانت السيول تدفعنى وتغمرنى .. فليس فى وسعى أن أحصى عدد المرات التى وقعت فيها .. أواه ! .. ان كل ما فى بدنى يخزنى ويؤلمنى .. ولكن لا تنزعجى ! .. سوف أشرح لك كل شىء بمجرد أن أجد فى نفسى القدرة على الكلام .. وكل ما أرجوه الآن هو أن تأمرى باعداد العربة لتقلنى الى جيمرتون ، وأن تطلبى من احدى الخدم احضار بعض الثياب لى من خزانة ملابسى ..

كانت القادمة ، كما أحسبك قد أدركت ، هى مسز هيثكليف (ايزابيلا) .. ومن المحقق انها لم تكن تبدو فى حالة تبرر الضحك .. كان شعرها متهدلا على كتفيها تتخلله ندف

الثلج ، ويقطر منه الماء .. وكانت ترتدى ثوبا من ثياب الفتيات التى اعتادت لبسها ، يلائم سنها أكثر مما يليق بمركزها .. ثوبا طويلا ذا أكمام قصيرة .. كما لم تكن تغطى رأسها أو تضع وشاحاحول عنقها..وكان ثوبها حريريا رقيقا ألصقه البلل بجسمها ، على حين كانت قدماها لا يحميهما سوى نعل خفيف مفتوح .. والى جانب ذلك ، كان يمتد تحت أذنها جرح غائر لم يحل دون نزف الدم منه بغزارة سوى البرد القارس ، كما كان وجهها الناصع البياض مليئا بالكدمات والخدوش ، وجسدها الناحل لا يكاد يقوى على التماسك من الاعياء والهزال معا .. ولك أن تتصور مبلغ فزعى الذى لم يخفف من حدته الوقت الذى انقضى منذ أن وقعت أنظارى عليها حتى استطعت أن أفحصها فى امعان ، فصحت بها قائلة :

ـ أيتها السيدة العزيزة ، اننى لن أتحرك من مكانى ، ولن أسمع منك كلمة واحدة أخرى ، حتى تنزعى كل قطعة من ثيابك ، وتستبدلى بها ثيابا جافة دافئة .. ولا ريب انك لن تذهبى الليلة الى جيمرتون وأنت فى هذه الحالة ، فلا داعى اذن لاعداد المركبة ..

ـ بل سوف أذهب حتما ، سواء ركبت أم مشيت ! .. ولكن لا اعتراض لدى على تبديل ملابسى والظهور بالمظهر اللائق .. و .. آه ! .. أنظرى كيف يجرى الدم فوق عنقى الآن ! .. ان حرارة النار تجعله لاذعا أليما !

وأصرت على أن أنفذ أوامرها قبل ان تسمح لى بأن ألمسها بيدى .. ولبثت حتى سمعتنى آمر الحوذى باعداد المركبة ، واحدى الوصيفات باحضار ربطة من الثياب واللوازم الأخرى ، وعندئذ فقط رضيت بأن أقوم بتضميد جرحها ، ومساعدتها فى استبدال ملابسها ..

وعندما فرغت من مهمتى ، اتخذت مجلسها على مقعد

مريح بجانب الموقد ، وأمامها قدح من الشاي الساخن ، ثم بدأت تقول :

ـ تعالي الآن يا ايلين ، واجلسي أمامي .. لكن ابعدي أولا بنت كاثرين المسكينة ، فلست أحب أن اراها .. ولا ينبغي أن تحسبيني قليلة الاكتراث لموت كاثرين بسبب مسلكي الأحمق عند دخولي .. فقد بكيت ، أنا الأخرى ، بمرارة شديدة ، وكان لدي من أسباب البكاء أكثر ممالدى اى انسان غيرى ، اذ افترقنا متخاصمتين ، كما تذكرين ، ولن أغفر لنفسي ذلك قط .. ولكنى رغم ذلك ما كنت بالتى تشاطره أحزانه ، ذلك الوحش المفترس .. آه ! .. ناولينى محراك النار ! .. هذا آخر شيء أقتنيه ، مما يمت اليه بصلة ..

ثم نزعت خاتم الزواج الذهبى من اصبعها الثالث وألقت به على الأرض، وراحت تدق عليه بالمحراك الحديدى، متابعة الحديث :

ـ سوف أحطمه ، ثم أرمى به الى النار ..

وشفعت القول بالفعل ، اذ تناولت الحلية المشوهة ووضعتها بين قطع الفحم المتوهجة ،واستطردت تقول :

ـ والآن ..عليه أن يشترى خاتما آخر ، اذا استطاع أن يدركني ويعيدنى اليه ثانية ! .. وهو خليق بأن يحضر ليأخذنى من هنا ، لا لشيء سوىاغاظة ادجار والنيل منه .. لذلك لا أجرؤ على البقاء ، حتى لا تتملك هذه الفكرة رأسه الشرير ! .. ثم ان ادجار لم يكن بى شفوقا رحيما ، أليس كذلك ؟ .. ولست بالتى تتهافت على طلب معونته ، ولا بالتى تجلب عليه المزيد من المتاعب .. وقد الجأتنى الضرورة الى أن أنشد المأوى هنا ، ولكنى لو لم أعلم أنه بعيد عن طريقى ، للبثت فى المطبخ ريثما أغسل وجهى ، واستدفىء قليلا ، وأدعوك لتحضرى لى ما أحتاج اليه ، ثم لرحلت ثانية الى أية

بقعة فى الأرض بعيدا عن متناول ذلك اللعين .. ذلك الشيطان المتجسد فى بدن انسان ! .. آه !.. لقد كان فى ثورة غضب جنونى !.. ولو أنه أدركنى وامسك بى !.. من المؤسف ان هندلى ليس قرينا له فى القوة والبأس ! .. ولولا ذلك لما رحلت قبل أن أراه يمحى من الوجود ، لو ان هندلى كان قادرا على ذلك ..

فقاطعتها قائلة :

ـ حسنا .. مهلا يا آنسة ، ولا تنطلقى فى الكلام بهذه السرعة .. فسوف تفسدين وضع المنديل الذى ربطته حول وجهك ، وتجعلين الجرح يدمى من جديد .. هيا اشربى الشاى، والتقطى انفاسك المتلاحقة، وخلى عنك هذا الضحك .. فالضحك الآن لا يليق بهذا المنزل المنكوب ، ولا بحالتك المؤسفة !

ـ هذه حقيقة غير منكورة يا ايلين ! .. ولكن اصغى الى هذه الطفلة .. انها لا تكف عن النواح منذ قدومى .. فابعديها عن مسامعى ساعة أو بعض الساعة ، فلن أمكث هنا طويلا ..

فقرعت الجرس، وعهدت بالوليدة الى عناية احدى الخادمات .. ثم مضيت أسألها عما دفعها الى التعجيل بالفرار من « مرتفعات ويذرنج » ، فى مثل هذه الحالة الغريبة ، والى أين تزمع الذهاب ، ما دامت تأبى البقاء معنا .. فأجابت :

ـ كان ينبغى ، بل لقد كنت أود ، أن أبقى لأسرى عن ادجار وأقوم على رعاية الطفلة المنكودة .. لهذين السببين ولأن « الجرانج » هو بيتى الطبيعى الحق .. ولكنى أؤكد لك أنه لن يدعنى وشأنى .. أتظنينه يطيق رؤيتى هنا ناعمة البال ، تكتسى عظامى الناحلة باللحم ، أو يطيق مجرد التفكير فى أننا نعيش هنا فى هدوء وهناء ، ثم لايصمم على أن ينفث سمه فيقضى به على راحتنا وسلامنا ؟ .. أننى الآن راضية مطمئنة اذ تحققت من كراهيته لى الى الحد الذى يسوؤه

فيه حقا أن يجدنى على مدى السمع أو مرمي البصر .. كنت ألاحظ عندما أمثل فى حضرته كيف تتقلص عضلات وجهه، فى حركات لا ارادية، معبرة عما يضمره لى من حقد، وما يكنه لى من بغضاء ، ينبعث بعضها من علمه بالأسباب القوية التى تدفعنى الى الاحساس بمثل هذه البغضاء نحوه، وينشأ باقيها من نفوره الأصيل منى.. وهذه البغضاء قد أضحت من القوة بحيث تجعلنى أشعر عن يقين بأنه لن يسعى ورائى أو يطاردنى فى أرجاء انجلترا كلها ، اذا ما دبرت فرارا نهائيا ، ولذلك يجب أن أذهب الى مكان بعيد .. ولقد شفيت تماما من تعلقى السابق به ،ورغبتى المأفونة فى أن ألقى مصرعى على يديه !.. بل شد ما أود الآن أن يقتل نفسه بيده ! .. لقد قضى على حبى له، واطفأ شعلته المتقدة، بحيث هدأ بالى واسترحت !.. ومع ذلك فما زلت أذكر كيف أحببته ، وما زلت أتصور كيف كان يمكن أن اقيم على حبه لو.. لا .. لا .. فحتى لو كان يهيم بى حبا ، فان طبيعتـه الشيطانية كانت خليقـة بأن تكشف عن وجودها على صورة ما .. ولابد ان كاثرين كانت ذات ذوق منحرف الى حد شنيع حتى تنطوى له على كل هذا القدر من التقدير والاعزاز، رغم علمها حق العلم بطبيعته.. يا للوحش ! .. أرجو أن يمحو الله ذكراه من الوجود ، ومن ذاكرتى !

فقلت :

ـ صه ! .. صه ! .. انه انسان على اية حال .. الا كونى أكثر انصافا واحسـانا ، فهناك رجال أسوأ منه بكثير رغم كل شيء ..

فردت على قائلة :

ـ ولكنه ليس انسانا على الاطلاق ، ولا حق له فى شفقتى واحسانى .. لقد وهبته قلبى ، فأخذه وظل يعصره ويخنقه حتى قضى عليه، ثم القاه الى ثانية جثة هامدة ! .. ان الناس

يحسون بقلوبهم يا ايلين ، ومـا دام قد دمر قلبى ، فـكيف يمكن ان اشعر نحوه بشىء ؟ .. ومـا كنت لأشفق عليه او أرثى لحاله ، ولو ظل يئن ويتأوه من اليوم حتى يوم مماته ، ويذرف الدموع دما على كاثرين .. كلا .. كلا .. لن أفعل حقا ..

وعندئذ أخذت ايزابيل فى النحيب ، ولكنها ما ان ذرفت بعض الدموع حتى كفكفت عبراتها واستطردت تقول :

ـ انك سـألتنى عما دفعنى الى الفرار أخيرا ؟ .. لقـد اضطررت الى هذه المحاولة ، لأننى أفلحت فى اثارة غضبه بما يفوق خبثه ولؤمه .. فان انتزاع الأعصـاب من جذورها ، بملاقط محماة فى النار ، يحتاج الى مزيد من البرود والهدوء أكثر من الضرب واللطم فوق الرأس .. وقد ثارت ثائرته حتى نسى حذره الذى كان يفاخر به ، ولجأ الى العنف القتال .. وملأنى السرور اذ استطعت أن أخرجه عن طوره ، فأيقظ هذا السرور فى نفسى غريزة المحافظة على الحياة ، وهكذا انطلقت هاربة على الفور .. فلو عدت اليـه يوما من الأيام ، وألقيت بنفسى بين يديه ثانيـة ، فاننى أستحق أن ينتقم منى شر انتقام ..

وأنت تعلمين أن مستر ايرنشو كان يجب أن يحضر الجنازة أمس .. وقد ظل محتفظا بوعيه وصحوته ، ولم يقرب الخمر ، لهذا الغرض .. فلم يذهب الى الفراش ، كعادته ، فى السادسة صباحا فاقد الوعى ، ليقوم عند الظهر فيستأنف الشراب .. وهكذا استيقظ مكتئبا يكاد الانقباض يقتله ، لا يصلح للذهاب الى الكنيسة الا كما يصلح للذهاب الى مرقص .. وبدلا من هذا أو ذاك ، جلس بجوار المدفأة وراح يجرع كؤوسا مترعة من الجن أو البراندى ..

أما هيثكليف ـ وان بدنى ليقشعر عندما أنطق باسمه ـ فقد ظل غريبا عن المنزل منذ يوم الأحد الماضى حتى اليوم ..

ولست أدرى ان كانت الملائكة هى التى كانت تطعمه ، أم أخوه من الجان فى العالم السفلى ! .. ولكنه لم يتناول درة من الطعام معنا زهاء اسبوع .. كان يعود الى المنزل فى الفجر ، فيصعد الى حجرته ويوصد بابها عليه ، كأنما كان هناك من يفكر فى اشتهاء رفقته ! .. وهناك يظل يصلى ويبتهل كأنه من غلاه المتدينين .. ولكن المعبود الذى كان يبتهل اليه كان من التراب والرماد ! .. وكان « الله » ، اذا دعاه ، مختلطا على نحو غريب بأبيه الشيطان الأسود !.. وبعدأن يتم هذه الصلوات الثمينه ، التى كانت تطول عادة حتى يبح صوته ويختنق فى حلقه ، فانه يبرح الدار لايلوى على شىء ، فيمضى قدما الى الجرانج .. وشدما أعجب كيف أن أدجار لم يرسل فى طلب شرطى يقوده الى السجن ! .. أما أنا ، فعلى ماكنت فيه من حزن واسى على كاثرين ، فقد كان من المستحيل أن أتحاشى اعتبار هذه الفتره التى نجوت فيها من طغيانه المهين ، كأجازة سعيدة !

واستعدت مرحى بما يكفى لسماع خطب جوزيف الطويلة الأبدية دون بكاء ، وللمضى فى الدار ذهابا وجيئة فى خطى غير خطى اللص المذعور التى كنت أمشى بها من قبل .. ولا أحسبك تظنيننى خليقة بأن أبكى من اى شىء يقوله جوزيف ، ولكنه وهيرتون شر رفقة يمكن أن يبتلى بها انسان .. ولخير لى أن أجلس مع هندلى ، واستمع الى حديثه البشع المروع ، من أن أجلس مع « السيد الصغير » ، وحاميه الأمين ، ذلك الشيخ المأفون المرذول .. وعند ما يكون هيثكليف فى المنزل ، فاننى اضطر غالبا الى الالتجاء الى المطبخ فى رفقتهما ، أو أرافق الجوع فى احدى الحجرات الرطبة غير المأهولة .. أما اذا كان خارج الدار ، كما كان شأنه طوال هذا الأسبوع ، فانى أقيم لنفسى منضدة ومقعدا عند ركن المدفأة بحجرة الجلوس ، ولا أبالى بما يفعله مستر ايرنشو ليشغل به نفسه ، كما أنه

من جانبه لم يكن ليزج بنفسه فيما أتخذه أنا من ترتيبات . وهو الآن أكثر هدوءا مما اعتاد أن يكون ، مالم يستفزه أحد أو يستثيره ، واشد عبوسا واكتئابا ، وأقل غضبا وهياجا .. ويؤكد جوزيف يقينه فى أنه أصبح رجلا آخر ، وأن الله قد مس قلبه ، وهكذا نال الخلاص كأنما « طهرته النار » .. وقد حيرنى أن أستشف علامة واحدة من علامات هذا التبدل المزعوم ، ولكن ذلك ليس من شأنى فى شىء !

وكنت ليلة الأمس أجلس فى ركنى المعهود ، أطالع فى بعض الكتب القديمة ،حتى ساعة متأخرة اذ أوشك الليل أن ينتصف .. وكان الصعود الى الطابق العلوى يبدو بشعا مروعا ، مع تلك العاصفة الثلجية الضارية التى تهب فى الخارج ، ومع انطلاق أفكارى باستمرار نحو فناء الكنيسة وذلك القبر الحديث البناء ! .. ولم أكن أجرؤ على رفع أنظارى عن الصفحات المفتوحة أمامى ، لأن ذلك المنظر الحزين كان يسارع الى احتلال مكانها أمام عينى .. وكان هندلى يجلس فى الناحية الأخرى ، وقد احنى رأسه وأسنده الى راحته ، ولعله كان يفكر فى ذلك الأمر نفسه ! .. وكان قد كف عن الشراب عند مرحلة لم تصل به الى فقدان الصواب ، وجلس ساكنا لا يتحرك أو ينطق بكلمة نحو ساعتين أو ثلاث .. ولم يكن يسمع فى المنزل كله صوت ، غير ولولة الرياح التى كانت ترج النوافذ بين آن وآخر ، وغير طقطقة الفحم فى المدفأة ، أو طقات المقراض كلما أزلت به ذبالة الشموع المحترقة .. أما جوزيف وهيرتون فالأرجح أنهما كانا ينعمان بسبات عميق فى فراشهما .. كان مجلسنا حزينا غاية الحزن ، وكنت خلال قراءتى ، أزفر زفرات حارة ، اذ كان يبدو لى أن كل ما فى العالم من بهجة وسرور قد نضب معينه وتلاشى من الوجود ، ولن يعود اليه قط ثانية ..

وأخيرا مزق هذا الصمت الحزين صوت سقاطة باب المطبخ

وهي تتحرك في مكانها ، اذ بكر هيثكليف في عودته من جولته الليلية عن المعتاد ، وأحسب ان العاصفة التي هبت فجأة كانت السبب في ذلك .. ولكن باب المطبخ كان موصدا من الداخل بالمزاليج ، فسمعناه يدور حول الدار ليدخل من الباب الآخر .. عندئذ انبعثت واقفة ، وعلى شفتي صيحة لم أستطع كتمانها ، كانت تعبر عما يختلج في نفسي ، وحدت برفيقي الذي كان يحملق بأنظاره في الباب الى أن يستدير وينظر الي ، قائلا :

– سوف أدعه واقفا في الخارج خمس دقائق أخرى ، فهل لديك مانع ؟

– كلا .. لك أن تدعه خارجا الليل بطوله من أجلي .. أسرع .. ضع المفتاح في القفل وادفع المزاليج وراء الباب ..

وفعل ايرنشو ذلك قبل أن يصل القادم الى واجهة الدار ، ثم عاد وجذب مقعده نحو الجانب المقابل من المائدة أمامي ، حيث استند اليه ، ومال نحوي ، وأخذ يتفرس في عيني متفحصا ، ليرى أن كنت أشاطره ذلك الحقد الناري الذي كان يتوهج في عينيه .. ولكنه كان يبدو ويحس كأنه قاتل يتأهب للفتك بفريسته ، فلم يستطع أن يدرك مشاعري تماما ، وأن كان قد تبين منها ما يكفي لتشجيعه على الكلام .. فقال :

– أن لكلينا دينا عظيما لابد من اقتضائه من ذلك الرجل الذي يقف خارجا .. فاذا لم يكن أحدنا جبانا رعديدا ، فان في وسعنا أن نوحد جهدنا لاستخلاص هذا الدين .. فهل تراك رخوة خائرة العزيمة كأخيك ؟ .. وهل تودين احتمال ماتعانينه حتى النهاية ولا تحاولين مرة واحدة أن تثأري لنفسك ؟ ..

فأجبته :

– لقد أضناني الاحتمال الآن ، ولسوف يسرني أن اثأر لنفسي على نحو لا يرتد علي وبالا .. ولكن الغدر والعنف

حراب ذات نصال مرهفة فى كلا طرفيها ، وهى تجرح أولئك الذين يلجأون اليها بأشد مما تفعل بأعدائهم ..

فصرخ هندلى فى وجهى قائلا :

ـ ان الغدر والعنف هما الجزاء الحق للغدر والعنف ! .. وانني يامسز هيثكليف لا أسألك أن تفعلى شيئا ، بل اجلسى ساكنة فى مكانك وانسى أن لك لسانا يستطيع النطق ! .. والآن ، هل فى وسعك أن تفعلى ذلك ؟.. اننى على يقين من أنك لن تقلى عنى سرورا واستمتاعا بمشاهدة نهاية الشيطان الأخيرة ! .. انه سوف يكون هلاكك ، اذا لم تسبقى الى اهلاكه ، وسوف يكون دمارى .. الا لعنة الله على الوغد الجهنمى ! .. انه يقرع الباب كأنما أصبح سيد هذه الدار !.. عدينى بأن تمسكى لسانك ، وسترين أنك قبل أن تدق الساعة ، وقد بقيت ثلاث دقائق على الساعة الواحدة ، قد غدوت امرأة حرة !

وأخرج من صدريته ذلك السلاح الذى وصفته لك فى خطابى ، وأراد أن يطفىء الشمعة لولا أننى بادرت الى اختطافها منه ، وأمسكت بذراعه قائلة :

ـ لن أمسك لسانى .. كما انك لا يجب ان تمسه .. دع الباب موصدا ، واركن الى الهدوء قليلا ..

فصاح الانسان اليائس قائلا :

ـ كلا .. لقد انتهيت الى قرار حاسم ، وأقسم بالله أن أنفذه .. سوف أسدى اليك جميلا رغم انفك ، وارد الى هيرتون حقوقه .. ولا أراك فى حاجة لأن تشغلى راسك بحمايتى ! .. لقد ذهبت كاثرين ، ولم يعد فى الوجود من يحزن على ، أو يلحقه العار بسببى لو أننى قطعت عنقى هذه اللحظة .. وقد حان الوقت لوضع نهاية لهذا الأمر ..

ولو أننى ناضلته وقتئذ فكأننى كنت أصارع دبا هائجا ، ولو ناقشته فكأننى كنت اجادل مجنونا فاقد الصواب .. فلم



« .. لقد ذهبت !.. ذهبت !.. وصديقك هيثكليف هو الذى فر بها ! »

(صفحة ٢٠٤)

تعد أمامى من حيلة ألجأ اليها سوى أن أعدو الى احدى النوافذ لأحذر ضحيته مما ينتظره من قضاء .. فصحت فى نبرات يخالجها الانتصار :

— خير لك أن تبحث عن مأوى لك فى مكان آخر الليلة ، فان مستر ايرنشو يفكر فى أن يطلق عليك النار اذا أصررت على محاولة الدخول ..

— بل خير لك أن تفتحى الباب أيتها ال ..

قال ذلك وهو يخاطبنى بلفظ رشيق لا أرى مايدعو لترديده !.. ولكنى عدت أقول له :

— لن أزج بنفسى فى هذا الأمر ، فما عليك الا أن تدخل وتصاب بالرصاص اذا كان ذلك يسرك ! .. أما أنا فقد اديت واجبى ..

وما انتهيت من كلامى حتى أغلقت النافذة ثانية ، وعدت الى مكانى بجوار الموقد .. واذ كانت ذخيرتى من النفاق قد فرغت ، فلم يعد فى وسعى أن أتظاهر بالقلق نحو الخطر الذى يتهدده ! .. أما ايرنشو فقد راح يسبنى فى حرارة ويؤكد اننى مازلت أحب الوغد بعد ، ويطلق على صنوفا من النعوت والصفات لما أظهرته من نفسية وضيعة ! .. أما أنا فكنت فى قرارة قلبى (ولم يؤنبنى ضميرى على ذلك قط) أرى كم تكون نعمة لهندلى ورحمة لو استطاع هيثكليف أن يضع نهاية لبؤسه ، وكم تكون نعمة لى وبركة لو استطاع هو أن يرسل هيثكليف الى مثواه العادل ! .. وفيما كنت جالسة اهدهد هذه الخواطر ، اذا بمصراع احدى النوافذ الضيقة خلف مقعدى يهوى الى الأرض فجأة بعد أن أهوى عليه هيثكليف بضربات عنيفة ، ثم بدا من خلال النافذة وجهه الأسود الهضيم .. ولم تكن القضبان الحديدية من السعة بحيث تسمح بمرور كتفيه ، فابتسمت ابتهاجا لما أحسست به من أمن مزعوم .. وكان الثلج الأبيض يغطى شعره وثيابه ، بينما

كانت أنيابه الحادة المفترسة تتألق فى الظلام ، وقد جعله البرد والغضب يكشر عنها ..

وما لبث أن راح « يزوم » كما يقول جوزيف ، قائلا :

ــ دعينى أدخل يا ايزابيلا ، والا جعلتك تندمين طويلا ..

فأجبته :

ــ ليس فى وسعى أن أرتكب جريمة قتل .. فان مستر هندلى يقف مترقبا وفى يده سكين ومسدس محشو بالرصاص ..

ــ افتحى لى باب المطبخ ..

ــ سوف يسبقك هندلى اليه .. ثم ما أتفه هذا الحب الذى تطوى عليه جوانحك فلا يجعلك تطيق رذاذا من الثلوج ! .. لقد كنا نرقد فى فرشنا هانئين ناعمين طالما كان قمر الصيف مشرقا زاهيا ، ولكنك فى اللحظة التى تعود فيها عصفة من عواصف الشتاء تسارع بالفرار والبحث عن ملجأ ومأوى ! .. لو أننى كنت فى مكانك يا هيثكليف ، لذهبت ورقدت فوق قبرها حتى أموت أشبه بكلب أمين ذى وفاء ! .. فان الدنيا لا تستحق العيش فيها الآن حقا ، أليس كذلك ؟ .. وقد أوحيت الى ، بما لا يقبل الشك ، بأن كاثرين كانت وحدها كل مافى حياتك من بهجة وسعادة ، ولست أستطيع أن أتصور كيف تفكر فى أن تعيش بعد فقدها !

وعندئذ هتف رفيقى وهو يندفع نحو فجوة النافذة :

ــ انه هناك .. أليس كذلك ؟ .. اذا استطعت أن أخرج ذراعى فسوف أصيبه حتما !

وأخشى يا ايلين أن تعدينى شريرة متأصلة الشر ، ولكنك لا تعرفين كل شىء ، فلا تحكمى على .. فاننى ما كنت لأشترك أو أحرض على أية محاولة للاعتداء على حياته ، مهما يكن من أمر .. ولكن مامن شك فى اننى كنت أتمنى موته !.. ولذلك فقد خاب أملى الى حد مخيف ، وانخلع قلبى من الرعب مما

سوف يكون لحديثى العنيف من عواقب مروعة ، عند ما ألقى بنفسه على سلاح ايرنشو وانتزعه من قبضته ..

وانطلقت الرصاصة مدوية .. اما السكين فانها عند ما ارتدت الى مخبئها ، اطبقت على رسغ صاحبها .. وانتزعها هيثكليف فى قوة خارقة ، حتى مزقت اللحم وهى تجرى فوقه ، ثم ألقى بها فى جيبه وهى تقطر بالدماء .. وعندئذ تناول حجرا صخما وراح يحطم به الفاصل بين النافذتين ، ثم وثب الى داخل الحجرة .. وكان غريمه قد وقع على الارض فاقد الوعى ، من فرط الالم ، ومن فيض الدماء التى تدفقت من شريان كبير مقطوع .. فاخذ الوغد يركله ويطأه بقدميه ويدق البلاط برأسه المرة تلو المرة ، وهو يمسك بى بيده الاخرى ليحول دون استنجادى بجوزيف .. وكان يبذل جهدا فوق طاقة البشر فى نكران الذات ودفع عوامل الاغراء ، حتى لا يجهز عليه نهائيا .. ولكنه اذ بدا يلهث من التعب أخيرا ، كف عن متابعة عمله الشيطانى ، وراح يجر الجسم ليسجى حتى الاريكة ، ثم مزق كم سترة ايرنشو وأخذ يربط الجرح فى خشونة وحشية وهو يبصق ويلعن فى حمية لا تقل عن التى كان يركله بها .. واذ ألفيت نفسى قد تحررت من قبضته ، لم اضيع شيئا من الوقت فى البحث عن الخادم الشيخ ، الذى ما كاد يستوعب فى بطء وتبلد فحوى قصتى العاجلة ، حتى أسرع يهبط الدرج كل اثنتين معا ، وهو يغمغم لاهثا :

ــ ماذا يجب عمله الآن ؟ .. ماذا يجب عمله الآن ؟ ..

فصاح به هيثكليف فى صوت كهزيم الرعد :

ــ هاك مايجب عمله .. ان سيدك مجنون ، ولو ظل على هذه الحال شهرا آخر ، فسوف أبعث به الى مستشفى الأمراض العقلية .. ثم كيف اجترأت ، بحق الشيطان على ايصاد الأبواب دونى ، أيها الكلب الأهتم ؟ .. لا تقف هكذا تغمغم وتهمهم فى مكانك . تعال ، فاننى لن أقوم على تمريضه

.. اغسل هذه الأقذار ونظف الجرح .. ولكن حذار من شرر شمعتك ، فان أكثر من نصف هذه الدماء من الكحول !

فهتف جوزيف وهو يرفع ذراعيه ، وعينيه ، الى السماء فزعا ورعبا :

ـ واذن فقد كنت تعمل على الفتك به ؟ .. ان عينى لم تقعا على مثل هذا المنظر قط من قبل ! .. فليكن الله ..

وعندئذ دفعه هيثكليف دفعة قوية ألقت به على ركبتيه وسط الدماء ، ثم طوح اليه بمنشفة .. وبدلا من أن يأخذ جوزيف فى مسح الدماء ، ضم يديه معا ، وانطلق فى صلاة انتزعت ألفاظها العجيبة الضحك منى رغم ارادتى .. فقد كنت فى حالة عقلية تجعلنى أتأثر من أتفه شىء .. بل الواقع أننى كنت فاقدة الشعور متبلدة الحس كما يبدو بعض المجرمين وهم عند اعتاب المشنقة !

فقال الطاغية وقد نبهته ضحكتى :

ـ آه ! .. لقد نسيتك .. أنت التى يجب أن تقوم بهذا العمل .. اركعى على الأرض .. هل كنت تتآمرين معه ضدى أيتها الأفعى ؟ .. هيا .. هذا هو العمل الذى يليق بك ..

وراح يهزنى حتى اصطكت أسنانى فى قوة ، ثم طوح بى الى جوار جوزيف .. وكان هذا الأخير ماضيا فى دعواته وابتهالاته حتى أتمها فى ثبات ، وعندئذ نهض ناذرا أن يذهب على الفور الى « الجرانج » ، فقد كان مستر لينتون قاضيا ، ولو ماتت له خمسون زوجة فلن يتأخر عن التحقيق فى هذا الأمر .. وكان من العناد والاصرار على تنفيذ عزمه بحيث رأى هيثكليف من الأوفق أن ينتزع من شفتى ملخصا لما حدث .. كان يقف فوق رأسى ، لاهثا بالشر والضغينة ، بينما كنت أنطق بشهادتى فى نفور ، ردا على اسئلته المتتابعة .. وقد احتاج الأمر الى جهد عظيم لاقناع العجوز بأن هيثكليف لم يكن المعتدى ، خصوصا وأن اجاباتى كانت تنتزع منى فى عناء .. ومهما يكن

من أمر ، فسرعان ما أقنعه مستر ايرنشو نفسه بأنه ما زال على قيد الحياة ، فقد أسرع جوزيف باحضار جرعة من الشراب كان لها أثرها فى اسعاف سيده ، فما لبث أن استرد الوعى والحراك .. واذ كان هيثكليف يدرك أن خصمه يجهل كل شىء عن المعاملة التى لقيها منه بينما كان فاقد الرشد ، فقد دعاه بالسكير المخرف ، وقال انه سوف يغضى عن مسلكه الأثيم ، ثم نصحه بأن يذهب الى فراشه !.. وكم كان سرورى اذ فارقنا بعد أن ألقى بهذه النصيحة القيمة .. فاستلقى هندلى على الأرض بجوار الموقد ، أما أنا فانصرفت الى حجرتى ، متعجبة من أننى أفلت منه بهذه السهولة ..

وعند ما نزلت صباح اليوم ، قبل الظهر بنصف ساعة ، كان مستر هندلى جالسا بجانب النار ، شاحب الوجه كالأموات ، بينما وقف شيطانه الزنيم مستندا الى المدفأة ، وهو لا يقل عنه شحوبا واصفرارا .. ولم يكن يبدو على أحدهما ميل الى تناول الطعام ، حتى اذا ما طال انتظارى ، وبرد الطعام وفتر فوق المائدة ، بدأت الأكل وحدى .. وكنت أستشعر نوعا من الرضى والسمو ، كلما ألقيت بين الحين والآخر نظرة على رفيقى الصامتين ، وأحس فى أعماقى براحة ضميرى الذى لا يثقله وزر أو سوء .. فلما فرغت من طعامى ، تذرعت بالجرأة لممارسة حريتى المعتادة فى الاقتراب من الموقد ، فدرت حول مقعد ايرنشو ، وجثوت فى الركن الى جانبه ..

ولم يلق هيثكليف نظرة واحدة نحوى ، أما أنا فقد رحت أحدق النظر اليه وأتفرس فى أساريره ، بقلب قوى غير هياب ، وكأنها قد تحولت الى حجر منحوت .. كان جبينه ، الذى حسبته ذات مرة معبرا عن الرجولة الحقة ، والذى أحسبه الآن كجبين الشيطان ، تظلله سحابة كثيفة من الهم والأسى .. وكانت عيناه الثعبانيتان ، قد أطفأ بريقهما السهد ، وربما البكاء ، اذ كانت أهدابهما وقتئذ رطبة ندية .. أما شفتاه اللتان تجردتا

من سخريتهما الضارية ، فقد أطبقتا فى قوة وكأنما ختم عليهما حزن دفين مكتوم .. ولو أنه كان شخصا آخر ، لأخفيت وجهى بين يدى أمام مثل هذا الحزن العظيم .. أما فى حالته هو ، فقد وجدت فيها مايرضينى ويثلج قلبى .. ومهما يكن يبدو من الخسة والنذالة أن يسب المرء عدوا مهزوما ، الا اننى ماكنت لأدع هذه الفرصة تمر دون أن أرميه بسهم من يدى .. فساعة ضعفه هى اللحظة الوحيدة التى أذوق فيها لذة مقابلة الاساءة بالاساءة ..

فقاطعتها قائلة :

ـ بئس مافعلت يا آنسة ! .. ان المرء ليظن انك مافتحت كتابا مقدسا فى حياتك .. واذا كان الله قد ابتلى أعداءك ، فان ذلك خليق بأن يكفيك .. فمن النذالة والكفران معا أن تضيفى عذابك الى عذابه جل شأنه !

فاستطردت تقول :

ـ اننى أوافقك على ماتقولين يا ايلين بصفة عامة .. ولكن اى عذاب ذلك الذى يصيب هيثكليف ويرضينى ، اذا لم تكن لى يد فيه ؟ .. اننى كنت أرجو أن تقل آلامه ، لو اننى كنت التى سببتها ، وكان هو يعرف أننى سببها .. آه ! .. اننى مدينة له بالكثير ! .. واننى لخليقة بأن آمل أن أصفح عنه ، بشرط واحد فقط .. ذلك أن أجزيه عينا بعين وسنا بسن ، وكل عصرة من الألم عصرة مثلها،حتى اهبط به الى مستواى ! .. واذ كان هو البادىء بالعدوان والاساءة ، فدعيه يكن البادىء باستجداء الصفح ، وعندئذ .. عندئذ فقط يا ايلين يمكن أن أظهر لك شيئا من الكرم .. ولكن من المحال قطعا أن أستطيع الانتقام لنفسى ، ولذلك فاننى لن استطيع الصفح عنه ..

ثم أردفت تتابع الحديث :

طلب هندلي بعض الماء ، فناولته الكوب ، ثم سألته عن حالته ، فقال :

ـ لست مريضا بالقدر الذى كنت أوده .. وبغض النظر عن آلام ذراعي ، فان كل قيراط من بدنى يخزنى ويؤلمنى كأنما كنت أحارب فرقة من العفاريت ..

فكانت ملاحظتى التالية ان قلت :

ـ نعم .. ولا عجب ! .. لقد اعتادت كاثرين أن تزهو بأنها تقف بينك وبين أى أذى جسمانى .. وكانت تعنى أن أحد الناس لن يجرؤ على ايذائك ، حتى لا يسيء اليها .. والآن تأكدت أن الناس لايقومون حقيقة من قبورهم ، والا كان من الممكن أن تشهد كاثرين ليلة الأمس منظرا كريهــا منفرا .. ألست تحس بالكدمات والقطوع فى صدرك وكتفيك ؟ ..

ـ لست أدرى تماما .. ولكن ماذا تعنين ؟ .. هل اجترأ على ضربى بينما كنت طريحا على الأرض ؟ ..

فهمست قائلة :

ـ كان يركلك ويدوسك بقدميه ويضرب رأسك بالبلاط ، وكان اللعاب يسيل من فمه شوقا الى تمزيقك بأنيابه .. لأنه ليس الا نصف انسان ، وأما باقيه فشيطان رجيم ..

فتطلع مستر ايرنشو بأنظاره الى أعلى محملقا ، مثلى ، فى وجه عدونا المشترك الذى كان مستغرقا فى همومه وآلامه بحيث كان يبدو غافلا عن كل مايدور حوله .. وكان كلما طال وقوفه ، كلما ازداد انطباع أفكاره الســوداء على أســاريره وضوحا ..

فتأوه هندلى ، وتلوى فى مقعده وهو يهم بالنهوض ، وكأنه لا يستطيع صبرا ، وقال :

ـ آه ! .. لو أن الله يهبنى من القوة القدر الذى يكفى لأن أخنقه بيدى وأنا فى النزع الأخير ، لدخلت الجحيم راضــيا مسرورا !

ولكنه غاص فى مقعده ثانية ، وقد تملكه اليأس ، بعد ما تبين قصوره عن النضال .. بينما كنت أقول بصوت مرتفع :

— لا .. لا .. فيكفى انه قتل واحدا منكم .. ان كل انسان فى « الجرانج » يعرف أن شقيقتك كانت خليقة بالبقاء على قيد الحياة الآن ، لولا مستر هيثكليف .. وهكذا فان الأفضل للمرء أن يكون محل بغضه وكراهيته من أن يكون موضع حبه وهيامه .. واننى كلما ذكرت كيف كانت السعادة تحلق فوقنا جميعا ، وكيف كانت كاثرين سعيدة هانئة قبل مقدمه ، أرانى ألعن ذلك اليوم من كل قلبى ..

وأغلب الظن أن هيثكليف ادرك ما فى هذا القول من الصدق ، أكثر من ادراكه ماكان يعتمل فى قلب الشخص الذى نطق به .. فقد ثار انتباهه لكلماتى ، كما رأيت ، اذ أخذت عيناه تمطران الدموع بين أهدابهما ، وراح يلتقط أنفاسه فى أنات مختنقة .. فرحت أحملق النظر اليه مواجهة ، ثم ضحكت ساخرة .. فانطلقت نحوى من نافذتى جهنم الغائمتين نظرات نارية لم تدم أكثر من لحظة .. ولكن الشيطان الذى كان يطل منهما عادة كان كامدا ، غريقا ، بحيث لم يخالجنى الخوف لحظة من المجازفة بضحكة ساخرة أخرى ..

فقال الثاكل المحزون :

— قومى ، واغربى عن ناظرى ..

وقد فهمت كلماته من قبيل الحدس والتخمين ، اذ كان صوته مختنقا لا يكاد يبين منه لفظ أو حرف .. فأجبته :

— أرجو المعذرة ! .. ولكنى كنت أحب كاثرين أيضا .. وهاهوذا شقيقها يحتاج الى العناية التى سوف أقدمها له ، اكراما لذكراها .. أما وقد ماتت الآن ، فانى أراها فى هندلى .. ان عينيه تشبهان عينيها تماما ، لولا محاولاتك فى جعلهما بارزتين مجللتين بالسواد والحمرة ! .. كما أنها ..

فصاح قائلا :

ـ انهضى أيتها التعسة الحمقاء ، قبل أن أسحقك حتى أقضى عليك ..

ثم هم بحركة جعلتنى أتحرك فى مكانى بدورى ، ولكنى أردفت ، قائلة ، وقد أعددت نفسى للفرار :

ـ ولكن لو ان كاثرين المسكينة كانت قد وثقت بك ورضيت أن تتخذ لنفسها ذلك اللقب المضحك الحقير المزرى ، لقب « مسز هيثكليف » ، لغدت وشيكا فى مثل هذه الصورة الأليمة .. انها ـ هى ـ ماكانت لتحتمل مسلكك الفظيع فى سكون وهدوء ، ولوجد بغضها واشمئزازها متنفسا ..

وكان ظهر المقعد المرتفع ، وشخص ايرنشو ، يحولان بينه وبينى .. وهكذا فانه بدلا من أن يحاول الانقضاض على ، اختطف سكينا من فوق المائدة ، وقذف بها رأسى ، فأصابتنى تحت أذنى ، وأوقفت العبارة التى كنت على وشك أن انطق بها .. ولكنى انتزعتها ، ووثبت نحو الباب ، ثم ألقيت اليه بعبارة أخرى أحسبها كانت أشد عمقا فى نفسه من قذيفته التى رمانى بها ! .. وكانت آخر لمحة رأيتها منه ، انه اندفع نحوى فى وحشية ، ولكن حال بينه وبين ملاحقتى أن مضيفه قام فاحتضنه ثم سقط الاثنان متماسكين بجوار المدفأة .. وفى أثناء فرارى من المطبخ ، طلبت الى جوزيف أن يدرك سيده ، وتعثرت فى هيرتون الذى كان يدلى جروا رضيعا من فوق ظهر المقعد فى مدخل المطبخ .. وفى سعادة الروح التى أفلتت من يوم الحساب ، انطلقت اقفز وأثب وأطير طيرانا فى الطريق المنحدرة ، ثم مالبثت أن تركت منحنياتهاومضيت اخترق البرارى راسا ، فأتدحرج فوق الشطآن ، واخوض خلال المستنقعات ، واستحث خطاى نحو « الجرانج » الذى اتخذت منه منارا يهدينى سواء السبيل .. واننى لأفضل الف مرة أن يحكم على بالسكنى الأبدية فى تلك المناطق

الجهنمية ، من أن أقضي ولو ليلة واحدة تحت سقف « مرتفعات ويذرنج » ثانية ..

وكفت ايزابيلا عن الكلام ، وأخذت رشفة من الشاى ، ثم نهضت وطلبت الى أن أعاونها فى ارتداء قبعتها والتدثر بشال كبير أحضرته لها، وقد أعارت توسلاتى لها بالبقاء ساعة أخرى أذنا صماء ، ثم ارتقت مقعدا فقبلت صورة كاثرين وصورة ادجار ، ومنحتنى قبلة أخرى ، وأسرعت الى العربة وفى صحبتها كلبها « فانى » الذى كان ينبح فى فرح شديد لاستعادة سيدته .. وانطلقت بها العربة ، فلم تضع قدمها فى تلك الانحاء بعد ذلك قط .. ولكن نشأ بينها وبين سيدى تراسل منتظم بعد أن ازدادت الأمور استقرارا .. وأعتقد أنها اتخذت مقرها الجديد فى الجنوب ، بالقرب من لندن .. وهناك وضعت غلاما ، بعد بضعة شهور من فرارها ، أسمته « لينتون » ، وقالت أنه كان منذ مولده عليلا هزيلا شكسا ..

وقابلنى مستر هيثكليف فى القرية ذات يوم ، وسألنى عن المكان الذى تقيم فيه ، فرفضت أن أخبره به .. فقال ان الأمر ليس بذى أهمية لديه ، ولكن عليها أن تحذر الحضور للاقامة مع أخيها .. وليقم بالانفاق عليها اذا شاء ، ولكن على الا تساكنه أو تقيم معه .. ومع أننى أبيت الادلاء اليه بأية معلومات ، فقد اكتشف ، عن طريق بعض الخدم الآخرين ، المكان الذى تقيم فيه ، ومولد الطفل أيضا .. ولكنه مع ذلك لم يقدم على ازعاجها أو ملاحقتها .. وهو احجام أحسبها تحمد له بواعثه وهى نفوره منها وكراهيته لها .. وكان غالبا ما يسألنى عن الغلام ، كلما رآنى .. ولما سمع اسمه ابتسم فى عبوس وقال معقبا :

— أنهم يريدون أن أكرهه أيضا .. أليس كذلك ؟ ..

— بل لا احسبهم يريدون ان تعرف عنه شيئا البتة ..

ـ ولكنى سوف آخذه ، عند ما أريد .. وليكونوا من ذلك على يقين ..

ومن حسن الحظ أن أمه قضت نحبها قبل أن يحين ذلك الوقت .. وكان ذلك بعد وفاة كاثرين بثلاثة عشر عاما ، عندما كان لينتون الصغير فى الثانية عشرة من عمره ، أو أكثر قليلا ..

. . . . . .

لم تتح لى أية فرصة للتحدث الى سيدى غداة زيارة ايزابيلا غير المتوقعة.. فقد كان عزوفا عن الحديث، لا تسمح له حالته بمناقشة أى موضوع .. فلما استطعت أن أحمله على الاصغاء رأيت أن فراق شقيقته لزوجها قد سره كثيرا، اذ كان يمقت هيثكليف مقتا شديدا بلغ من الغزارة ما لم أكن أحسب ان اعتدال طبيعته يسمح به .. كان نفوره واشمئزازه من العمق والحساسية بحيث كان يتجنب الذهاب الى أى مكان يحتمل أن يراه فيه او يسمع عنه .. ولهذا السبب ، فضلا عن حزنه العميق ، تحول ادجار الى ناسك يعتزل الناس والعالم .. فتخلى عن وظيفته القضائية ، وامتنع حتى عن الذهاب الى الكنيسة ، وتجنب زيارة القرية فى جميع المناسبات ، وراح يمضى حياته فى عزلة تامة داخل حدود بستانه وضياعه ، لايتجاوزها الا فى جولة يقوم بها وحيدا بين البرارى ، أو زيارة يؤديها لقبر زوجته ، معظمها فى المساء أو الصباح الباكر قبل أن يخرج غيره من المارة من ديارهم ..

ولكنه كان من الطيبة والتدين بحيث لم يقم على الاستسلام للشقاء طويلا .. لم يكن ـ كما فعل الآخر ـ يدعو روح كاثرين الى ملازمته وارتياده ! وساهم الزمن فى جعله يذعن للقضاء ، وكساه طابعا من الكآبة أحلى من المرح المألوف ! ..

وكان يستعيد ذكراها فى حب وحنان عميقين ،وفى الدعاء لها بالتنعم بعالم أفضل ، لم يكن يشك البتة فى ذهابها اليه ! .. ولكن كان له عزاؤه وعواطفه الدنيوية أيضا .. فقد مكث أياما حسبته خلالها لا يهتم على الاطلاق بالنبتة الصغيرة التى خلفتها الراحلة .. ولكن جموده مالبث أن ذاب بأسرع مما تذوب الثلوج فى شهر ابريل ، حتى انه قبل أن تستطيع الصغيرة أن تنطق بكلمة أو تحبو خطوة ، كانت تحتل فى قلبه عرشا مكينا .. وسماها كاثرين ، ولكنه لم يكن يدعوها بهذا الاسم كاملا قط ، كما لم يكن يدعو كاثرين الأولى باسمها المصغر قط .. ربما لأن هيثكليف اعتاد أن يدعوها به .. كانت الصغيرة تسمى « كاثى » دائما .. وكان له فى ذلك ما يميزها عن أمها ، وما يربطها بها فى الوقت نفسه .. وكان تعلقه بها ينبثق من صلتها بأمها أكثر مما ينبعث من أبوتهلها..

وقد اعتدت أن أقارن بينه وبين هندلى ايرنشو ، وأكدح فكرى ، فى حيرة ودهشة ، للوصول الى تفسير يقنعنى لما بدا من تناقض مسلكهما الى هذا الحد ، فى ظروف متماثلة تماما .. كان كلاهما زوجا شديد الولع بزوجته ، غزير العاطفة نحو طفله ، ومن ثم لم يكن بوسعى أن أفهم كيف لايسلك كلاهما طريقا واحدة ، سواء أكانت نحو الخير أم نحو الشر .. ولكن هندلى — كما قلت لنفسى — وقد كان أقواهما مراسا وأكبرهما عقلا ، قد أثبت انه اسوأ الاثنين واضعفهما.. فعند ما ارتطمت سفينته ، هجر الربان مركزه ، فاندفع البحارةنحو التمرد والفوضى،بدلا من أنيحاولوا انقاذسفينتهم المنكودة ، ولم يدعوا لها ذرة من الأمل فى النجاة .. وعلى العكس من ذلك ، أظهر لينتون تلك الشجاعة الحقة التى تتميز بها النفس المؤمنة المخلصة .. كان يؤمن بالله ويثق به ، فوهبه الله الراحة والسكينة .. غدا أحدهما معقلا للأمل ، والآخر فريسة لليأس .. اختار كل منهما نصيبه ، فقدر

عليه أن يحتمله بحق .. ولكنك لا تريد أن تسمع منى هذا النقد الأخلاقى يامستر لوكوود .. وتود أن تحكم بنفسك ـ مثلما استطعت أن أفعل ـ على كل هذه الأشياء .. أو هذا على الأقل ماسوف تظن انك فاعله .. والأمر بعد ذلك سواء ..

وجاءت نهاية ايرنشو مثلما كان يمكن للمرء أن يتوقعها .. وقد أعقبت وفاة شقيقته سريعا ، لايكاد يفصل بينهما أكثر من ستة شهور .. ولم نكن فى «الجرانج» نعرف أقل شىء عن حالته قبل موته ، فكل ما استطعت أن أعرفه انما سمعته به عند ما ذهبت للمساعدة فى معدات الجنازة .. فقد حضر مستر كينيث ليبلغ النبأ الى سيدى ، فى صباح أحد الأيام ، وكان الوقت مبكرا ، فلم يشأ أن يصدمنى بذكر الأنباء السيئة مباشرة ، وانما قال لى وهو يدخل راكبا جواده فى الفناء :

ـ حسنا يانللى ! .. انه الآن دورك ودورى فى ارتداء ثياب الحداد .. فمن تظنينه قد غاب عنا اليوم ؟ ..

فسألته فى لهفة شديدة : من ؟ ..

فقال وهو يترجل ويعلق عنان الجواد فى الخطاف بجوار الباب :

ـ لماذا ؟ .. عليك أن تحدسى بنفسك .. ثم عليك أن ترفعى طرف مرولتك ، فانى واثق من أنك ستحتاجين اليها ..

فصحت قائلة :

ـ انه ـ يقينا ـ ليس مستر هيثكليف ؟ ..

فقال الطبيب :

ـ ماذا ؟ .. وهل كنت تجدين دموعا تذرفينها عليه ؟ .. كلا .. فهيثكليف شاب متين الجسم قوى البنية .. وهو يبدو مشرقا ناضرا اليوم ، فقد رأيته للتو .. وقد بدأ جسمه يمتلىء باللحم سريعا منذ أن أضاع نصفه الحلو ..

فعدت أهتف فى صبر نافد :

ـ من اذن يامستر كينيث ؟ ..

- هندلى ايرنشو .. صديقك القديم هندلى ، وصاحبى التعس المنكود ، ولو أنه كان شديد الضراوة معى فى هذه الآونة الطويلة الأخيرة .. آه ! .. لقد قلت أننا سوف نفجر الماء من العيون !.. ولكن لا .. دعى عنك البكاء .. فقد مات مخلصا لخلقه ومبادئه ! .. مات ثملا كأحد اللوردات !.. آه ! .. يا للفتى المسكين !.. اننى حزين من أجله كذلك .. فالمرء لا يملك الا أن يحزن لفقد رفيق قديم ، ولو انه كان ينطوى على أسوأ الصفات التى لايتخيلها انسان ، وفعل معى الكثير من أنواع الخداع الدنيئة !.. ويبدو أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره ، أى فى مثل سنك تماما .. فمنذا الذى كان يظن أنكما ولدتما فى سنة واحدة ؟ ..

وأعترف ان تلك اللطمة كانت أشد وقعا على نفسى من صدمة وفاة مسز لينتون .. وبدأت ذكريات أيامنا القديمة تطوف بقلبى ، فجلست فى الشرفة ، ومضيت أبكى بحرقة كأنما أبكى قريبا تربطنى به صلة الدم ، راغبة الى مستر كينيث أن يدعو خادما أخرى لتقوده الى السيد .. ولم يكن فى وسعى أن أمنع نفسى من امعان الفكر فى هذا السؤال : «أتراه لقى معاملة كريمة لائقة ؟ .. » فاننى مهما فعلت ، فان هذه الفكرة سوف تظل تلاحقنى وتنغص عيشى .. وقد كانت من الالحاح المضنى بحيث عزمت على أن التمس الاذن لى بالذهاب الى « مرتفعات ويذرنج » ، لأساهم فى أداء الواجب الأخير نحو الفقيد .. وكان مستر لينتون ، فى بادىء الأمر ، يأبى كل الاباء ان يسمح لى بذلك ، ولكنى رحت أدافع فى حرارة وذلاقة لسان عن الحال التى يرقد فيها هندلى مجردا عن الأصدقاء والأحبة ، وقلت أن لسيدى القديم وأخى فى الرضاعة ، من الحقوق فى خدماتى ما لا يقل عن حقوق مستر لينتون نفسه .. وفضلا عن ذلك فقد ذكرته بأن هيرتون الطفل هو ابن شقيق زوجته ، وأن من واجبه ، وهو

أقرب الناس اليه الآن ، أن يكون حاميه وحارسه .. وقلت أنه ينبغى له ، بل يجب عليه ، أن يتحرى عن الحالة التى تركت بها أملاك شقيق زوجته ، وأن ينظر فى رعاية مصالحه .. ولكنه كان وقتئذ فى حالة لا تسمح له بمباشرة مثل هذه الشئون ، فأمرنى بأن أتكلم فى ذلك مع محاميه ، ثم سمح لى بالذهاب .. وكان محاميه هو محامى مستر ايرنشو فى الوقت نفسه ، فذهبت الى زيارته فى القرية ، وسألته أن يصحبنى .. ولكنه هز رأسه سلبا ، ونصح لى بأن ندع مستر هيثكليف وشأنه ، مؤكدا أنه لو عرفت الحقيقة ، فسيتبين أن هيرتون قد ترك أدنى الى المعدمين والشحاذين .. ثم أردف قائلا :

ـ لقد مات أبوه غارقا فى الدين ، بعد أن رهن كل ما يملكه .. والأمل الوحيد أمام الوريث الطبيعى الآن ، هو أن نتيح له الفرصة لكى يخلق فى قلب الدائن شيئا من الاهتمام به بحيث يميل الى معاملته بنوع من الرفق والتسامح !

فلما بلغت « مرتفعات ويدرنج » ، أوضحت أننى جئت كى أشارك فى عمل الترتيبات اللائقة بالفقيد .. وقد أعرب جوزيف عن ارتياحه لحضورى ، وكان يبدو فى حزن عميق .. أما هيثكليف فقد قال انه لا يرى ثمة ما يحتاج لوجودى ، ولكن فى وسعى أن أبقى ، وأن آمر بما أراه نحو معدات الجنازة ، اذا رغبت فى ذلك .. ثم عقب قائلا :

ـ ان الأصوب أن يدفن جثمان هذا المعتوه فى مفترق الطرق دون احتفال من أى نوع .. فقد حدث أن تركته عشر دقائق بعد ظهر الأمس ، فما كان منه فى هذه الفترة الوجيزة الا أن أوصد أبواب المنزل فى وجهى ، ثم أمضى الليل بطوله يشرب الخمر حتى قتل نفسه عن عمد .. وحطمنا الباب فى الصباح ، اذ سمعناه يرسل نخيرا عاليا كالحصان فوجدناه ملقى فوق الأريكة ، غائبا عن الصواب ، لا يفيق ولو سلخنا جلده أو شققنا رأسه !.. وأرسلت فى طلب كينيث ، فلم

يحضر الا وقد تحول هـذا البهيم الى رمة ! .. كان ميتا ، باردا ، متيبسا .. وهكذا ترين أنه كان من العبث أن نحدث مزيدا من الضجة بسببه ..

وأيد الخادم الشيخ هذه الرواية ، ولكنه غمغم يقول :

ــ كنت أفضل أن يذهب فى طلب الطبيب بنفسه ، فاننى كنت خليقا بأن أعنى بالسيد خيرا منه .. ثم انه لم يكن قد مات عند ذهابى .. لاشىء من ذلك البتة !

وأصررت على أن تشيع جنازته بما يليق به من احترام ، فقال مستر هيثكليف أنه يدع لى التصرف فى هذا الأمر كما أشاء أيضا ، ولكنه يود أن يذكرنى بأن المال الذى سينفق على الجنازة انما سيخرج من جيبه هو !.. وكان يبدو جامدا ، فى غير مبالاة ، لاينم مظهره عن حزن أو فرح .. وان دل على شىء البتة ، فانما يدل على رضى صارم ، كما يرضى المرء عند ما ينتهى بنجاح من مهمة شـاقة .. بل لقـد لاحظت مرة فى الواقع شيئا يشبه الابتهاج فى مظهره ، وكان ذلك على وجـه التحديد عند ما حمل النعش الى خارج المنزل .. ومع ذلك فقد كان من النفاق بحيث ارتدى ثياب الحداد عند تشييع الجنازة .. وقبل أن يغادر المنزل مع هيرتون ، حمل الغـلام المنكود ووضعه فوق أحدى الموائد ، ثم غمغم يقول له فى تلذذ غريب : « والآن يا صغيرى العزيز ، لقد أصبحت لى وحدى ، وسوف نرى ان كانت الشجرة لن تشب معوجة كالشجرة الأخرى ، ما دامت الريح التى تهب عليهما وتثنيهما واحدة ! » .. وسر الطفل البرىء لهذا الحديث الذى لم يفقه منه شيئا ، وراح يعبث بسوالف هيثكليف ويربت على خده .. ولـكنى تكهنت بالمعنى الذى يرمى اليه ، فقلت فى مرارة :

ــ ان هذا الصبى يجب أن يعود معى الى « ثرشـكروس جرانج » ياسيدى ، فهو آخر شىء فى العالم يمكن أن يصبح لك !

فسألني في اهتمام : وهل قال لينتون ذلك ؟ .

ـ بلا شك .. لقد أمرني أن أعود به معي ..

فقال الوغد :

ـ حسنا .. اننا لن نناقش هذا الأمر الآن .. ولكن بي ميلا الى أن أربي غلاما صغيرا ، فبلغي سيدك أنه اذا حاول أخذ هذا الصبي ، فلا بد لي من أن أحل ابني محله .. ولست أتعهد بترك هيرتون يذهب دون أن أنازع حق سيدك في أخذه ، اما الآخر فاني واثق من احضاره حتما .. فلا تنسى أن تبلغيه ذلك ..

وكان هذا التلميح كافيا لغل يدي .. فلما عدت أخبرت سيدي بما قال ، ولما كان ادجار لينتون قليل الاكتراث للامر منذ البداية ، فانه لم يتكلم عن التدخل في الأمر بعد ذلك قط .. ولست أعتقد أنه كان قادرا على عمل شيء ، حتى ولو كان راغبا في ذلك ..

وهكذا أصبح الضيف سيد « مرتفعات ويذرنج » الآن ، حيث استولى عليها بيد من حديد ، وأثبت للمحامي ـ الذي أثبت ذلك لمستر لينتون بدوره ـ أن ايرنشو قد رهن كل شبر من الأراضي التي كان يملكها ليحصل على المال الذي يشبع به جنونه بالمقامرة .. وكان هيثكليف نفسه هو المرتهن ..

وعلى هذا النحو أصبح هيرتون ـ الذي كان ينبغي أن يكون الآن السيد الأول في المنطقة ـ خالي الوفاض لا يملك شيئا ، ويعتمد اعتمادا كليا على عدو أبيه اللدود ، ويعيش في منزل أسرته كأحد الخدم ـ وان كان محروما من ميزة الأجر الذي يتقاضاه الخدم ! ـ وهو عاجز عن استعادة حقوقه ، لأنه محروم من الأصدقاء والأنصار ، ولانه يجهل كيف كان ضحية الغدر والخيانة ..

الفصل الثامن عشر

وتابعت مسز دين قصتها فقالت :

كانت الأعوام الاثنا عشر التى تلت تلك الفترة المشئومة ، أسعد أيام حياتى ، فكان أعظم مالقيته فيها من متاعب ناشئا من تلك الأمراض الطفيفة التى كانت تنتاب أحيانا سيدتنا الصغيرة ، مثلما تصيب جميع الأطفال يستوى في ذلك الغنى منهم والفقير .. وفيما عدا ذلك فانها بعد أن اجتازت الشهور الستة الأولى ، نشأت كالشجرة الباسقة ، واستطاعت أن تمشى وأن تتكلم على طريقتها الخاصة ، قبل أن يزهر العشب مرة اخرى حول قبر مسز لينتون ، أى قبل أن يمر عام على وفاتها .. كانت أكثر « الأشياء » استمالة للقلب وأقدر من استطاع ، فى يوم من الأيام ، ان يجلب شعاعا من الشمس الى المنزل الموحش !

كان محياها آية من آيات الجمال ، فقد ورثت عيون آل ايرنشو السوداء الساحرة ، وورثت من آل لينتون بشرتهم الناصعة البياض ، وملامحهم الدقيقة ، وشعرهم الأشقر المجعد .. وكانت روحها عالية ، فى غير خشونة .. وتميزت بقلب شديد الحساسية والحيوية الى حد الافراط فى عواطفه .. وكنت كلما رأيت فيها ذلك الاستعداد للتعلق الشديد بما تهواه ، أذكر أمها .. ومع ذلك فلم تكن تشبهها ، لأنها كانت قادرة على أن تكون وديعة رقيقة كالحمامة ، كما كان لها صوت عذب جميل ، ومحيا ترتسم فيه علائم التفكير والانشغال .. لم يكن غضبها ثائرا جموحا ، ولم يكن حبها ضاريا عنيفا ، وانما كان عميقا حنونا .. ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بأنه كانت لها أخطاء تشين مزاياها .. من ذلك ميلها الى الشقاوة ! .. بل وكانت لها ارادة عنيدة كتلك التى يكتسبها الأطفال المدللون

سواء أكانوا مسالمين بطبعهم أم مشاكسين .. فلو صادف أن غاظها أحد الخدم فانها لاتزيد على القول دائما : « سوف أخبر بابا ! .. » .. أما اذا لامها والدها ، ولو بنظرة واحدة، فانك تخاله أصابها بما يحطم القلوب ! .. ولست اعتقد انه خاطبها يوما من الأيام بكلمة خشنة او عبارة قاسية ..

وقد أخذ على عاتقه أمر تعليمها وتثقيفها بنفسه ، وجعل من ذلك مسلاة له .. ومن حسن الحظ أن سرعة قريحتها وميلها الى العلم ، فى شغف وفضول ، قد جعلا منها تلميذة مجـدة ناجحـة .. وكانت تدرس فى سرعة ونهم ، وتلتهم الدروس التهاما أثلج قلب والدها وجزى تعبه فى تعليمهـا خير الجزاء ..

ولم تكن حتى الثالثة عشرة من عمـرها قـد خرجت الى ماوراء حدود البستان وحدها .. كان مستر لينتون ربمـا صحبها الى خارج البستان ميلا أو ميلين ، فى مرات نادرة.. ولكنه لم يكن يأمن ان يعهد بها الى أحد سواه .. كان اسم القرية « جيمرتون » لفظا لا قيمة له ولا معنى فى أذنيها .. وكانت الكنيسة هى المبنى الوحيد الذى اجتازت عتبته ، فيما عدا منزلها .. أما « مرتفعات ويذرنج » و «مستر هيثكليف» فلم يكن لهما وجود بالنسبة اليها .. كانت تعيش فى عزلة تامة ، وكانت فيما يبدو قانعة بذلك راضية تماما .. وأقول « فيما يبدو » لأنها كانت أحيانا كلما سرحت بأنظارها ، من نافذة حجرة ألعابها ، فى المناظر البعيدة تقول فى تردد :

ـ كم ينبغى أن ينقضى من الوقت يا ايلين قبل أن أستطيع السير الى قمم هذه التلال ؟ .. شد ما أعجب ما الذى يقع فى الناحية الأخرى منها .. هل هو البحر ؟ .

فكنت أقول :

ـ كلا يا مس كاثى .. بل تلال أخرى شبيهة بهذه تماما .. وسألتنى مرة :

ـ ترى كيف يكون منظر هذه الصخور الذهبية اذا وقفت تحتها ؟ .

وكان السفح الشديد الانحدار لصخرة « بنستون كراجز » يلفت نظرها بصفة خاصة ، ولا سيما عندما تتألق فوقه أشعة الشمس الغاربة ، بينما تلف الظلال سائر قمم التلال والأراضى المجاورة لها .. فقلت لها انها مجرد كتل من الحجر والصخور الصلدة التى لا تحوى شيئا من التربة يصلح لانبات شجرة واحدة ..

فتابعت أسئلتها فى الحاح :

ـ ولماذا تظل مضيئة وقتا طويلا بينما يخيم الظلام هنا ؟ .

ـ لأنها مرتفعة ارتفاعا عظيما عن مكاننا هذا .. كما أنه ليس فى استطاعتك أن تتسلقيها ، فهى شديدة الارتفاع شديدة الانحدار ، والثلوج تعلوها فى الشتاء قبل أن تصل الينا .. بل لقد وجدت الثلوج مرة ، فى اواسط الصيف ، تحت ذلك التجويف الأسود الذى ترينه فى الجانب الشمالى الشرقى !

عندئذ صاحت فى جذل :

ـ آه !.. هل ذهبت الى هناك اذن ؟.. سوف أستطيع الذهاب بدورى اذن عندما أبلغ مبلغ النساء ! .. وهل ذهب ابى الى هناك يا ايلين ؟ ..

فسارعت الى الاجابة قائلة :

ـ سوف يخبرك أبوك يا آنستى ، انها لا تستحق عناء الزيارة .. ان البرارى التى تتجولين معه فيها ، أعظم منها جمالا وروعة ، كما أن « بستان ثرشكروس » هو أجمل مكان فى العالم ..

فغمغمت كأنما تحدث نفسها :

ـ ولكنى أعرف البستان ولا أعرف هذه التلال !.. ولسوف يبهجنى أن أقف فوق تلك القمة العالية واجيل انظارى فيما

يحيط بى ! .. سوف يأخذنى مهرى الصغير « مينى » الى هناك يوما من الأيام !

وذكرت احدى الوصيفات أمامها مرة اسم « كهف الحوريات » فأدار ذكره رأسها بالرغبة فى تنفيذ هذا المشروع ، وكانت لا تفتأ تكدر صفو والدها بالحديث عنه ، فكان يعدها بأن تقوم بهذه الرحلة عندما تتقدم فى العمر .. ولكن مس كاثرين كانت تقيس عمرها بالشهور ، فكان السؤال الذى لا يبارح شفتيها : « والآن ، هل كبرت بما يكفى لذهابى الى بنستون كراجز ؟ .. » ولكن الطريق الى هناك كان يدور ملاصقا « لمرتفعات ويذرنج » ، ولم يكن ادجار يميل الى المرور بها ، وهكذا كانت تتلقى دائما هذه الاجابة : « كلا يا حبيبتى ! .. لم يحن الوقت بعد ! »

قلت ان مسز هيثكليف عاشت أكثر من أثنى عشر عاما بعد أن هجرت زوجها ، وأضيف أن افراد اسرتها كانوا جميعا ضعاف البنية ، فكانت تنقصها ، كما تنقص ادجار ، تلك الصحة اليانعة التى تلقاها عادة فى اهل هذه المنطقة .. ولست أدرى عن يقين ماذا كان مرضها الأخير ، ولكنى أحسب انها وأخاها قد ماتا بمرض واحد ، هو نوع من الحمى بطيئة الظهور فى بدايتها ، ولكنها غير قابلة للشفاء ، وتلتهم الحياة سريعا فى النهاية .. وقد كتبت الى أخيها لتخبره بقرب نهايتها بعد مرض ألزمها الفراش أربعة شهور متوالية ، ورجته أن يذهب اليها، اذا استطاع ، لأن لديها الكثير من الأمور التى تريد تسويتها ، ولأنها تريد أن تودعه الوداع الأخير ، وتعهد اليه بلينتون الصغير آمنة مطمئنة .. وكانت ترجو ان يترك هيثكليف لينتون مع خاله ، كما كان معها ، وتجد سرورا فى اقناع نفسها بأن أباه كان عزوفا عن الاضطلاع باعالته أو تعليمه .. فلم يتردد سيدى لحظة واحدة فى الاستجابة لرجائها .. وعلى الرغم من نفوره من مغادرة منزله فى الزيارات العادية ، كما كان

عهده فى الآونة الأخيرة فانه سارع الى تلبية تلك الدعوة ، وعهد بكاثرين الى عنايتى الساهرة أثناء غيابه ، وأصدر لى أوامره المشددة بألا أدعها تجوب خارج البستان ، ولو فى صحبتى .. أما خروجها وحدها فأمر لم يخطر له على بال !

وطالت غيبته ثلاثة أسابيع .. ففى اليومين الأولين كانت الصغيرة المعهود بها لعنايتى تجلس فى ركن المكتبة وقد منعها الحزن من القراءة أو اللعب ، وهكذا لم تسبب لى الا القليل من المتاعب وهى فى هذه الحالة من الهدوء والسكينة .. ثم تلت ذلك فترة من الملل المصحوب بضيق الصدر والمشاكسة .. واذ كنت كثيرة المشاغل، وقد تقدم بى العمر ، وليس فى وسعى أن أجاريها فى القفز والجرى والصعود والهبوط لتسليتها ، فقد استنبطت طريقة تستطيع بها أن تسلى نفسها بنفسها .. وذلك بأن ابعث بها لتقوم بالتجوال وحدها داخل حدود المزرعة ، سيرا على الأقدام تارة وراكبة مهرها الصغير تارة أخرى ، ثم أتملقها بالاصغاء فى صبر واناة الى قصص مغامراتها الحقيقية والخيالية ، عندما تعود من جولاتها ..

كان الصيف مشرقا بكل روعته وبهجته ، فكانت تجد متعة كبيرة فى هذه النزهات الانفرادية ، بحيث كانت كثيرا ماتبقى خارج الدار من وقت الافطار حتى موعد الشاى بعد الظهر ، ثم تقضى أمسياتها في رواية قصصها الخيالية المثيرة .. ولم أكن أخشي ان تخترق الحدود المرسومة لها ، لأن البوابات كانت عادة محكمة الغلق، ولأنى حسبتها لا تجرؤ علىاجتيازها والتوغلخارجها وحدها لو انها كانت مفتوحة علىمصراعيها .. ولكنىسرعان ما تبينت - لسوء الحظ - أن ثقتي لم تكن فى موضعها .. فقد حضرت لى كاثرين ذات صباح ، فى الساعة الثامنة ، وقالت انها سوف تكون اليوم تاجرا عربيا يعبر الصحراء بقافلته ، وان على أن أوفر لها المزيد من المؤن لنفسها

ولسائر اعضاء القافلة من الدواب ، وهى حصانها وثلاثة « جمال » ممثلة فى كلب سلوقى كبير واثنين من كلاب الصيد .. فأعددت لها كمية وفيرة من الفطائر والحلوى وجمعتها فى سلة علقتها على أحد جانبى سرج الحصان ، وعندئذ اعتلت ظهره فى خفة ومرح ، وقد ارتدت قبعتها ذات الحافة العريضة والنقاب الحريرى الخفيف ليحميا رأسها ووجهها من شمس يوليو القاسية ، ثم انطلقت تعدو بالجواد وهى تطلق ضحكة مرحة ، وتسخر من نصائحى وتحذيراتى بتجنب الاسراع فى السير ، والتبكير فى الحضور .. ولكن الخبيثة لم تظهر حتى موعد تناول الشاى ، ولم يعد من أفراد قافلتها سوى الكلب السلوقى اذ كان متقدما فى العمر مغرما بالراحة والاسترخاء .. أما كاثى والمهر وكلبا الصيد فلم يظهر لأى منهم أثر فى أى مكان .. وبعثت بالرسل يجوسون خلال الممرات فى البستان والمزارع ، وأخيرا مضيت للبحث عنها بنفسي .. والتقيت بعامل يشتغل فى اصلاح السياج حول أحد الحقول ، عند حدود مزرعتنا ، وسألته ان كان قد رأى سيدتنا الصغيرة ، فقال :

ـ لقد رأيتها فى الصباح حيث طلبت منى أن اقطع لها غصنا من شجرة البندق ، ثم وثبت بجوادها فوق السور عند تلك البقعة التى ينخفض فيها أكثر من غيرها ، وأسرعت تعدو حتى اختفت عن الأنظار !

ولك أن تتصور مبلغ ما اعترانى من جزع لدى سماعى هذه الأنباء ، وخطر لى على الفور أنها لا بد قد ذهبت الى « صخور بنستون » التى كانت تتوق لرؤيتها عن كثب .. فهتفت أقول لنفسى : « ويلاه ! .. ماذا يكون مصيرها ؟ .. » ثم اندفعت خلال الثغرة التى كان العامل يصلحها فى السياج ، ومضيت قدما نحو الطريق ، أغذ السير كأننى فى سباق ، واقطع القفار ميلا بعد ميل ، حتى بلغت منحنى أرى عنده

« مرتفعات ويذرنج » ، ولكننى لم أتبين أثرا لكاثرين من قرب أو من بعد .. وكانت « صخور بنستون » تقع على بعد ميل ونصف من مسكن مستر هيثكليف ، كما كان ذلك يبعد عن « الجرانج » بأربعة أميـال ، وهكذا بدأت أخشى ان يهبط الظلام قبل ان استطيع بلوغها ، ورحت اغمغم قائلة لنفسى : « وماذا يكون الحال لو كانت قد زلت قدمهـا أثنـاء تسلق الصخور ، فسقطت قتيلا ، أو كسرت بعض عظامها ؟ .. » والواقع أن جزعى كان أليما اشد الألم ، ولذلك غمرنى سرور الارتياح ـ بادىء ذى بدء ـ عندما كنت أسرع السير بجوار (المرتفعات) فاذا بى أرى « شارلى » أحـد كلبى الصيد ، بل اشرسهما ، ملقي تحت احدى النوافذ ، وقد ورم رأسه وأخذ الدم ينزف من اذنه .. ففتحت باب السور وأسرعت الى المنزل ورحت أطرق بابه بقوة ولهفة ، وما لبث أن فتح عن امرأة كنت اعرفها ، كانت تعيش من قبل فى جيمرتون والتحقت بالخدمة هنا على أثر وفاة مستر ايرنشو ، فمـا كادت ترانى حتى صاحت :

ـ آه ! .. هل أتيت للبحث عن سيدتك الصغيرة ؟ .. لا تخشى شيئا .. انها هنا بخير وسلامة .. ولكنى مسرورة لأنه لم يكن السيد هو الذى يطرق الباب ..

فغمغمت مبهورة الأنفاس من المشى السريع واللهفة والقلق :

ـ انه ليس فى المنزل اذن ؟

ـ كلا .. كلا .. لقد خرج هو وجوزيف ولا أحسبهما يعودان قبل ساعة أو تزيد .. ادخلى وارتاحي قليلا ..

فدخلت ، واذا بى أرى حملى الشارد جالسة بجوار المدفأة ، تتأرجح في مقعد صغير كان لأمها وهى صغيرة .. وكانت قبعتها معلقة فى مشجب على الجدار ، بينما كانت تبدو فى راحة واطمئنان كأنها في بيتها ، وقد راحت تمرح وتتحدث في طلاقة الي هيرتون ـ الذى أصبح الآن شـابا قويا في

الثامنة عشرة — وهى فى أحسن حالاتها النفسية .. وكان هيرتون يحملق بأنظاره اليها فى دهشة وفضول بالغين ، ولا يفقه الا أقل القليل من ذلك الفيض المتتابع من الملاحظات والأسئلة التى كان لسانها الذلق لا يكف عن صبها فى أذنيه ..

وأخفيت فرحتي برؤيتها سالمة وراء قناع من الغضب والاستياء ، وصحت :

— مرحى .. مرحى .. يا آنسة ! .. سوف تكون هذه آخر مرة تركبين فيها جوادك ، حتى يعود أبوك من سفره .. وما عدت أثق فيك أو أطمئن الى اجتيازك عتبة الدار ايتها الفتاة الشقية !

فهتفت فى مرح وهى تثب من مجلسها وتسرع الى جانبى :

— آه يا ايلين ! .. سوف تكون لدى قصة رائعة لأرويها لك الليلة ! .. ولكن اراك عثرت على ، فهل أتيت الى هذا المنزل فى حياتك قبل الآن ؟

فتجاهلت سؤالها ، وقلت فى صرامة :

— ضعى قبعتك وهيا الى المنزل على الفور .. واننى شديدة الاستياء منك ، يا مس كاثى ، فقد اتيت خطأ جسيما .. ولا فائدة من العبوس أو البكاء ، فان ذلك لن يجزى ما سببته لى من قلق وجزع بينما كنت أذرع المنطقة طولا وعرضا فى البحث عنك ! .. وكلما فكرت كيف عهد لى مستر لينتون بالمحافظة عليك ومنعك من الخروج من المزرعة ، واذا بك تتسللين الى الخارج على هذا النحو ، ازددت استياء من مسلكك .. وهذا يدل على انك ثعلب صغير ماكر ، ولن يضع أحد ثقته فيك بعد ذلك قط !

وكانت قد بدأت فى النحيب ، فاذا بها تكف دفعة واحدة ، وتقول :

— ما الذى فعلته ؟ .. ان أبى لم يأمرنى بشىء .. كما انه لن يؤنبني يا ايلين ، فانه لم يكن قط صارما قاسيا مثلك !

فعدت أقول :

ـ هيا .. هيا .. سوف اربط لك شريط القبعة .. والآن دعينا من المشاكسة .. آه ! .. ياللعار ! .. أتكونين فى الثالثة عشرة ، وتتصرفين كطفلة صغيرة ؟

وقد فهت بهذه الملاحظة الأخيرة عندما دفعت القبعة عن رأسها وأسرعت تقف بجوار المدفأة بعيدا عن متناول يدى ..

وتدخلت الخادمة قائلة :

ـ رويدك ، ولا تكونى قاسية على الصبية الطيبة يا مسز دين ! .. اننا نحن الذين جعلناها تتوقف هنا ، اذ كانت تتوق الى المضى فى طريقها ، خشية أن تقلقى عليها .. وقد عرض عليها هيرتون أن يذهب معها ، وأحسب انه كان ينبغى ان يرافقها ، لأن الطريق فوق التلال شديد الوعورة ..

وكان هيرتون أثناء هذا النقاش يقف واضعا يديه فى جيبى سراويله ، وقد استبد به الارتباك فلم يستطع النطق بكلمة واحدة ، وان كان يبدو غير مرتاح الى تطفلى !

واستطردت أقول غير مكترثة بتدخل المرأة :

ـ كم من الوقت يجب أن أنتظرها ؟ .. سوف يحل الظلام بعد عشر دقائق .. فأين مهرك يا مس كاثى ؟ .. وأين « فينكس » ؟ .. سوف اتركك وامضى لشأنى ، ما لم تسرعى .. فافعلى مايحلو لك !

ـ ان المهر فى الفناء .. اما فينكس فمحبوس هناك ، لأنه معضوض ، وكذلك شارلى .. وقد كنت على وشك أن أخبرك بكل شىء فى هذا الأمر ، ولكنك سيئة الخلق ، ولا تستحقين الاستماع الى روايتى !

والتقطت القبعة من الأرض ، واقتربت منها لأضعها فوق رأسها ثانية ، ولكنها اذ رأت الشاب والخادمة ينحازان لصفها ، بدأت تقفز حول الحجرة بعيدا عنى .. وشرعت فى مطاردتها فاذا بها تجرى هنا وهناك كالجرذ فوق قطع الأثاث

وتحتها وخلفها ، مما جعل استمراري في المطاردة مثيرا للسخرية ، فضحك هيرتون والخادمة ، وشاركتهما هي في الضحك ، وأمعنت في الفحة حتى صحت اخيرا في انفعال شديد :

ـ حسنا يا مس كاثي .. لو انك عرفت منزل من هذا لكان يسرك أن تغادريه على الفور ..

فنظرت هي الى هيرتون قائلة :

ـ انه منزل أبيك ، أليس كذلك ؟

فلم ينطق الا بكلمة « كلا » ، وقد أغضى بنظراته الى الأرض واحمر وجهه احمرارا شديدا من الخجل .. فلم يكن يقوى على الصمود أمام نظراتها الثابتة ولو ان عينيها كانتا تشبهان عينيه تماما ..

فعادت تسأله :

ـ منزل من اذن ؟ .. سيدك ؟

فازداد تورد وجهه عمقا حتى غدا ارجواني اللون ، ولكن عن شعور يختلف عن شعوره الأول ، وغمغم بكلمة سباب ، ثم أشاح بوجهه بعيدا ..

فاستطردت الفتاة المتعبة وهي توجه لي الخطاب :

ـ من هو سيده ؟ .. لقد كان يتكلم فيقول « بيتنا » ، و « قومنا » .. ولذلك حسبته ابن صاحب المنزل .. ثم انه لم يقل أبدا « يا سيدتي » وهو يخاطبني ، وكان يجب أن يقولها اذا كان خادما ، أليس كذلك ؟

فغدا وجه هيرتون رماديا داكنا كسحابة كثيفة مشحونة بالرعد ، بينما جذبت محدثتي في صمت ، وأفلحت أخيرا في اعدادها للرحيل .. وما لبثت أن خاطبت ابن خالها المجهول بمثل ما تخاطب واحدا من سياس « الجرانج » قائلة :

ـ اذهب الآن واحضر جوادي .. ويمكنك أن تأتي معي ، فاني أريد أن أرى اين ينهض صائد العفاريت من وسط

المستنقعات ، واسمع الحديث عن الجنيات كما تسميهن .. ولكن اسرع ! .. ماذا دهاك ؟ .. لقد أمرتك بأن تحضر لى الجواد ..

فزمجر الشاب قائلا : « سوف أراك هالكة فى الجحيم قبل ان اكون خادما لك ! »

فقالت كاثرين فى دهشة : سوف ترانى ماذا ؟

ـ هالكة فى الجحيم أيتها الساحرة السليطة اللسان !

فتدخلت قائلة :

ـ كفى يا مس كاثى ! .. لقد رأيت أنك زججت بنفسك فى رفقه غير لائقة بك .. أمثل هذه الألفاظ توجه الى سيدة شابة ؟ .. ولكنى أرجوك ألا تبدأى النقاش والشجار معه ، وتعالى نبحث عن « المهر مينى » بنفسنا ونرحل من هنا ..

فهتفت تقول ، وقد شلت الدهشة البالغة حواسها :

ـ ولكن كيف يجرؤ على مخاطبتى بهذه اللهجة يا ايلين ؟ .. أليس المفروض أن يطيع ما آمره به ؟ .. سوف أخبر أبى بما قلته ايها المخلوق الشرير .. والآن !

فلم يبد على هيرتون ما ينم على اكتراثه بهذا الوعيد، وهكذا انبثقت الدموع من عينيها لشعورها بالمهانة ، وتحولت الى المرأة ، صائحة :

ـ اذهبى أنت فاحضرى المهر واطلقى سراح الكلب فى التو واللحظة !

فأجابتها الخادم :

ـ حنانك يا آنسة !.. انك لن تخسرى شيئا بالرقة وحسن المعاملة .. ومع أن مستر هيرتون هذا ليس ابن صاحب الدار، الا أنه ابن خالك .. أما انا فلم يؤجرنى أحد لخدمتك !

فصاحت كاثرين فى ضحكة ساخرة : هو ؟ .. هو ابن خالى أنا ؟ ..

ـ نعم .. هذه هى الحقيقة ..

فنظرت الى فى قلق بالغ وتابعت الحديث :

ـ آواه يا ايلين ! .. لاتدعيهم يقولون مثل هذه الأشياء الفظيعة .. لقد ذهب ابى ليحضر ابن عمتي من لندن ، وهو ابن أحد السادة ! .. أما هذا ..

وكفت عن الكلام وانفجرت باكية ، اذ قلب كيانها مجرد التفكير فى وجود صلة من القرابة بينها وبين هذا المهرج ..

فهمست أقول لها :

ـ صه .. صه ! .. ان الناس يمكن أن يكون لهم أبناء عمومة وأبناء خؤولة عديدون ومن كل نوع ، يامس كاثى ، دون أن يسوؤهم ذلك .. وكل مافى الأمر انه لاينبغى لهم أن يختلطوا بهم أو يلزموا صحبتهم اذا كانوا شريرين بغضاء ..

ـ ولكنه ليس .. انه لا يمكن أن يكون ابن خالى يا ايلين !

وكانت كلما أمعنت التفكير فى الأمر ازدادت حزنا وهما ، حتى ألقت بنفسها بين ذراعى كأنما تحتمى بى من هذه الفكرة ..

أما أنا فقد اشتد بى الضيق والكدر منها ومن الخادمة معا لتصريحاتهما المتبادلة ! .. فلم اشك لحظة أن قرب وصول لينتون ، الذى ذكرته كاثى ، سوف يبلغ لمستر هيثكليف .. وكنت موقنة أشد اليقين من أن أول ماستفعله كاثرين عند عودة والدها هو أن تطلب منه ايضاحا لما ذكرته الخادمة عن قرابتها لهذا الفتى الجلف السيىء الأدب !

وكان هيرتون قد أفاق من نفوره واشمئزازه من اعتباره أحد الخدم ، وبدا عليه التأثر لحزنها وأساها .. فمضى وأحضر المهر أمام الباب ، ثم أراد استرضاءها فأخذ من الوجار جروا صغيرا معوج السيقان ووضعه فى يدها وهو يطلب اليها أن تهدىء من روعها لأنه لم يكن يقصد شيئا .. فتمهلت فى البكاء ريثما رمقته بنظرة فاحصة ملؤها الخوف والفزع ، ثم انفجرت باكية من جديد !

ولم أستطع مغالبة الابتسام لهذا النفور من الفتى المسكين

الذى رأيته الآن شابا رياضيا متين البنيان وسيم الطلعة ممتلئا صحة وعافية ، الا أنه يرتدى ثيابا خشنة رثة تلائم أعماله اليومية فى الحقل ، وجولاته الدائمة فى البرارى سعيا وراء الأرانب الجبلية وغيرها من أنواع الصيد والقنص .. ومع ذلك خيل الى أننى أستطيع أن استشف وراء محياه عقلا يحوى من الصفات والمزايا ما لم يتح لأبيه قط .. ومن المحقق أن هناك أشياء كثيرة طيبة تختفى وسط الأعشاب والحشائش ويطغى عليها تكاثرها الكثيف السريع فيخفى تحته نموها البطىء الذى لا يجد العناية الكافية لكى يؤتى ثماره .. ومع ذلك فقد رايت الدلائل على تربة غنية قد تغل ثمارا وفيرة لو أتيحت لها ظروف أكثر ملاءمة .. واحسب ان مستر هيثكليف لم يسىء معاملته بدنيا ، والفضل فى ذلك يرجع الى طبيعة الفتى الذى شب لا يعرف الخوف ، والتى كانت بذلك لا تتيح الفرصة للاغراء بمثل هذا النوع من الاضطهاد .. فلم يكن على شىء من الخجل والاستكانة التى كان يمكن لهيثكليف أن يجد فيها دافعا لسوء معاملته له .. وهكذا يبدو انه انما كرس حقده وضغينته ليجعل منه بهيما جاهلا فظ الخلق .. فلم يلقن شيئا من مبادىء القراءة والكتابة ، ولم يزجر يوما عن خلة سيئة طالما لم تكن تسبب لسجانه ضيقا أو غضبا ، ولم تقد قدماه خطوة واحدة فى طريق الفضيلة ، ولا صين خلقه بنصيحة واحدة عن مهاوى الرذيلة .. وكان لجوزيف — فيما سمعت — نصيب وفير فى دماره ، اذ كان تحيزه له — وهو تحيز ناجم عن ضيق عقله — يدفعه الى تملقه وتدليله مذ كان صبيا صغيرا ، لأنه كان يعده رأس العائلة العريقة **القديمة** .. وبينما كان لا ينفك يتهم كاثرين ايرنشو وهيثكليف — عند ما كانا صغيرين حدثين — باثارة السيد واستنفاد صبره ، فدفعه بذلك الى البحث فى الخمر عن السلوى والعزاء مما كان يسميه « أساليبهما الشريرة » ، فانه صار الآن يلقى عبء

أخطاء هيرتون كلها على عاتق الغاصب الذى سلب أملاكه .. فاذا انطلق الصبى فى السباب لم يحاول تهذيبه ، وكذلك لم يحاول تقويمه مهما كان مسلكه مليئا بالذنوب والأخطاء .. ويظهر أن جوزيف كان راضيا كل الرضى وهو يراه ينحدر الى أسوأ مدى .. فقد سمح بدمار الصبى ، وبترك روحه تهيم فى وديان الضلال ، لا لشىء الا لاعتقاده بأن هيثكليف هو الذى سوف يكفر عن ذلك كله ! .. وكان يعتقد أن هيرتون يجب أن يحفظ دماء أسرته العريقة فى ذرية ينجبها ، فكان يجد فى هذه الفكرة عزاء ما بعده عزاء .. وكان جوزيف لايفتأ يصب فيه ، قطرة بعد قطرة ، كبرياء الاعتزاز باسم عائلته وسلالته .. وكان يود — لو وجد الجرأة على ذلك — أن ينمى فيه الحقد والكراهية نحو مالك « مرتفعات ويذرنج » الحالى .. ولكن فزعه ورهبته من ذلك المالك كانا قد بلغا مرتبة الفزع من الشياطين والأرواح الشريرة ! .. فكان يقصر مشاعره حياله على الغمز والتلميح فى غمغمة خافتة ، وعلى الوعيد بالويل والثبور .. فى سره ! .. ولست أزعم أننى أعلم عن يقين مجرى الأمور فى « مرتفعات ويذرنج » فى تلك الأيام ، وانما أروى ماكنت أسمعه ، لأننى لم أكن ارى هنا الا اقل القليل .. وكان القرويون يؤكدون ان مستر هيثكليف رجل شحيح يسوم مستأجريه العذاب ويقسو عليهم .. غير اننى أشهد ، والحق يقال ، ان المنزل من الداخل استعاد مظاهره القديمة من النظافة وتوفر وسائل الراحة ، تحت ادارة النساء اللواتى استخدمهن ، وأن مشاهد العربدة والشغب التى كانت تمثل أيام هندلى لم يعد لها وجود بين جدرانه الآن .. فقد كان السيد من الحزن والكآبة بحيث عزف عن مخالطة الناس ونشدان صحبتهم ، خيارهم وأشرارهم معا .. وما زال كذلك حتى الآن ..

ومهما يكن من أمر فان ذلك لاشأن له بمجرى قصتى ..



« .. فتلقاها بين ذراعيه ، والتقيا فى عناق طويل ظننت أن سيدتى لن
تخلص منه على قيد الحياة قط ! »   (صفحة ٢٤٥)

ولنعد الى مس كاثى ، فقد رفضت قبول هدية الصلح ، وهى الجرو الرضيع ، وطلبت أن يؤتى لها بكلبيها « شارلى وفينكس » ، فجاءا يعرجان ، وقد تدلى رأساهما .. وعندئذ بدأنا فى رحلة العودة الى المنزل ، على أسوأ ماتكون الرحلات ، وكل واحدة منا تحمل همها واساها .. ولم افلح فى أن استخلص من سيدتى الصغيرة كيف قضت يومها ، سوى ذلك الشىء الذى حدسته ، وهو أن كعبتها كانت فى ذلك اليوم « صخور بنستون » .. وانها وصلت بغير حادث حتى باب (مرتفعات ويذرنج) ، عندما تصادف اندفاع هيرتون وفى صحبته رفقة من الكلاب لم تلبث أن هاجمت قافلتها .. وكانت المعركة حامية الوطيس حتى استطاع سادة الفريقين التفريق بينهما .. وكان هذا الحادث سببا للتعارف بينهما ، فقد اطلعت كاثرين هيرتون على شخصيتها ، وأخبرته بما اعتزمته من الذهاب الى التلال ، ثم سألته أن يرشدها الى الطريق ، وأخيرا استدرجته الى مصاحبتها .. وقد كشف لها عن أسرار « كهف الجنيات » وعشرات غيره من الأماكن العجيبة .. ولكنها ، وقد كانت غاضبة منى ، لم تر أن تمن على بوصف ماشاهدته من الأشياء المسلية الغريبة .. ومع ذلك استطعت أن أتبين أن رفيقها ودليلها كان موضع رضاها حتى آذت شعوره بمخاطبته كأحد الخدم ، وحتى آذت خادمة هيثكليف شعورها بما زعمته من انه ابن خالها ! .. ثم جاءت تلك الألفاظ الشنيعة التى وجهها اليها فملأت قلبها حقدا وألما ! .. وهى التى كانت تسمع دائما ألفاظ « حبيبتى » و « عزيزتى » و « ملكتى » و « ملاكى » يخاطبها بها كل انسان فى « الجرانج » ، فوجه اليها الآن السباب الشائن من شخص غريب ! .. أنها لم تكن تفهم لذلك سببا .. وقد بذلت جهدا شاقا لأنال منها وعدا باخفاء أحزانها عن والدها ، وشرحت لها كيف أنه لا يرتاح الى أى مخلوق ممن يسكنون « المرتفعات » ، وكم يكون مبلغ أسفه وأساه لو عرف

انها كانت هناك .. ولكن النقطة التى ألححت فيها كثيرا ، هى تلك الحقيقة الواقعة وهى انها لو افشت له اهمالى لأوامره، فربما بلغ به الغضب الى حد يضطرنى الى ترك المنزل .. ولم تكن كاثى لتقوى على احتمال هذه النتيجة الأليمه ، ومن ثم وعدتنى بكتمان الأمر ، اكراما لى، وحافظت على هذا الوعد.. فقد كانت ، على أية حال ، فتاة رقيقة الشعور حلوة الشمائل .

الفصل التاسع عشر

ثم وافانى خطاب مجلل بالسواد ، يعلن موعد عودة سيدى. فقد ماتت ايزابيلا، وكتب لى السيد طالبا تحضير ثياب الحداد لابنته ، واعداد حجرة خاصة ، وغيرها من وسائل الراحة ، لابن أخته الصغير .. وقد جنت كاثرين فرحا من التفكير فى قرب استقبالها لأبيها عائدا من رحلته ، واستسلمت الى تصورات حماسية لما ترجوه من مزايا لاعدد لها لابن عمتها « الحقيقى » ..ثم حلت تلك الأمسيه التى كنا نتوقع وصولهما فيها .. وكانت كاثرين منذ الصباح الباكر منهمكة فى ترتيب أشيائها الخاصة الصغيرة .. أما الآن ، وقد ارتدت ثوبها الأسود الجديد ـ ويا للطفلة المسكينة ! .. ان موت عمتها لم يغمر نفسها بحزن واضح المعالم ـ فقد اضطرتنى بمضايقاتها الكثيرة المستمرة ، الى السير معها حتى نهاية أرضنا لنكون فى استقبالهما ..

ومضت تثرثر ونحن نتمشى الهوينى فوق المرتفعات والمنخفضات المكسوة بالعشب الندى تحت ظلال الأشجار :

ـ ان لينتون لايصغرنى الا بستة شهور .. فما أجمل أن يكون رفيقى فى اللعب ! .. وكانت عمتى ايزابيلا قد بعثت الى أبى بخصلة من شعره الجميل ، فاذا به لا يقل نعومة عن شعرى وان كان يفوقه فى خفته وشقرته .. وقد احتفظت

بها فى عناية داخل صندوق صغير من الزجاج ، وكثيرا ماكنت أفكر انه سوف يكون أمرا بهيجا لو اتيح لى ان ارى صاحبها عيانا ! .. آه ! .. اننى سعيدة حقا ! .. فهاهو ابى العزيز، ابى المحبوب يوشك على المجىء ! .. تعالى ياايلين .. دعينا نجر الى البوابه .. تعالى نجر معا ..

وأخذت تعدو ، ثم تعود ثانية ثم تجرى لتعود من جديد عدة مرات ، قبل أن تسعفنى خطواتى المتئدة الكليله ببلوغ البوابة .. وهنـاك جلست فوق العشب الأخضر على جانب الممر ، وحاولت جعلها تتذرع بالصبر فى الانتظار .. ولكن ذلك كان محـالا .. فلم تستقر فى جلستها دقيقة واحـدة .. وكانت لاتنى تهتف بى :

— ما أشد بطئهما فى الحضـور ! .. آه ! .. اننى أرى سحابة من الغبار فى الطريق .. فلعلهما قادمان ؟ .. ولكن لا .. متى يصلان الى هنا اذن ؟ .. ألا نمضى فى الطـريق قليلا ياايلين ؟.. نصف ميل مثلا ؟ .. مجرد نصف ميل فقط ؟ .. ألا قولى نعم .. دعينا نمض حتى تلك الخميلة من الشجر عند منعطف الطريق !

ولكنى رفضت فى اصرار .. وأخيرا انتهى انتظارها ، فقد ظهرت عربة السفر وهى قادمة تعدو فى الطريق .. وصاحت مس كاثى ومدت ذراعيها الى الأمام ، عندما رأت وجه ابيها يطل من النافذة .. وهبط أبوها من العربة وهو لايقل عنها لهفة وشوقا ، فمضت فترة طويلة قبل أن يفكر أحدهما فى شىء غير شخصيهما .. وانتهزت فرصـة استغراقهما فى العناق والقبلات ، فمضيت أختلس النظر الى لينتون الصغير، وكان نائما فى ركن المقعد ، متدثرا بمعطف سميك ذى أطراف من الفراء ، كما لو كنا فى صميم الشتـاء .. فوجدته غلاما شاحب الوجه ، رقيق الجسم ، تحسبه فتـاة لما يبـدو فى مظهره من ضعف أنثوى .. وكان الشبه بينه وبين سيدى من

القوة بحيث تخاله أخاه الأصغر .. ولكن كان فى مظهره من الوهن والضعف والمرض مالم يكن لادجار لينتون قط .. ورآنى سيدى أنظر الى الغلام ، فنصحنى - بعد ان صافحنى - بأن أغلق باب العربة وأن ادعه نائما لأن الرحلة أتعبته .. وكانت كاثى تتوق الى ان تلقى عليه نظرة ، ولكن والدها طلب اليها أن ترافقه ، ومشيا سويا فى الحديقة ، بينما أسرعت أسبقهما لأخبر الخدم بمقدم السيد ..

ووقفا عند اسفل الدرج الأمامى ، حيث قال مستر لينتون مخاطبا ابنته :

- والآن ياعزيزتى .. ان ابن عمتك ليس فى مثل قوتك أو مرحك ، ولا تنسى انه فقد والدته منذ عهد قصير .. فلا تنتظرى منه أن يشاركك اللعب والجرى من اول يوم .. كما أرجو الا تثقلى عليه بالكلام ، وأن تدعيه هادئا هذا المساء على الأقل ..

فأجابت كاثرين :

- سمعا وطاعة يا أبتاه ! .. ولكنى أريد أن اراه ، فانه لم يطل من العربة مرة واحدة !

ووقفت العربة امام الدرج فأوقظ النائم وحمل الى الأرض حيث وقف الى جوار خاله ، الذى وضع يده الصغيرة فى يد ابنته ، قائلا :

- هذه ابنة خالك كاثى ، يالينتون .. وقد أولعت بك من قبل أن تراك ، فلا تحزنها بالبكاء الليلة ، وحاول أن تبتسم الآن فقد انتهت الرحلة الشاقة ، ولم يبق الا أن تنال قسطك من الراحة وأن تمرح كما تشاء ..

فتراجع الغلام نافرا من مصافحة كاثرين ، ورفع يده ليمسح عبراته التى بدأت تتلألأ بين أهدابه ، ثم قال :

- دعنى أذهب الى الفراش اذن ..

فهمست قائلة له ، بينما كنت أقوده نحو باب المنزل :

ـ تعال .. تعال ، أيها الغلام الطيب .. انك بذلك تدفعها الى البكاء مثلك .. انظر كيف تبدو حزينة من أجلك !

ولست ادرى هل كان اكتئابها بسببه ام من اجله ، ولكن الواقع أن ابنة خاله كان يخيم على أساريرها من الحزن والكآبة مثلما كان يبدو فى محياه ، عند ما رجعت ثانية الى جانب والدها .. ودلف ثلاثتهم الى المنزل ، وارتقوا الدرج الى قاعة المكتبة ، حيث كان الشاى معداً لهم .. ومضيت أنزع قبعة لينتون ومعطفه ، ثم أجلسته فوق أحد المقاعد بجوار المائدة ، ولكنه ماكاد يجلس حتى بدأ فى النحيب من جديد .. فسأله السيد عن سبب بكائه ، فأجاب وهويشرق بدموعه :

ـ اننى لا أستطيع الجلوس على المقعد .

فقال خاله فى حلم وأناة :

ـ اذهب الى الأريكة اذن ، وسوف تحمل اليك ايلين الشاى ..

وشعرت بأن السيد قد لقى عناء شديداً طوال رحلته ، بسبب ربيبه العليل المشاكس ، وانه قد تحمله فى صبر وحلم لا ينفدان ..

وراح لينتون يجر قدميه المتثاقلتين حتى بلغ الأريكة ، فاستلقى فوقها ، بينما حملت كاثى قدحها ومقعداً منخفضاً ، وأتت تجلس بجواره .. ولبثت صامتة فى بادىء الأمر ، ولكن ذلك لم يطل كثيراً ، فقد استقر عزمها على أن تجعل من ابن عمتها الصغير ملهاة لها ، كما أرادت أن يكون بالنسبة اليها .. فبدأت تربت على خصلات شعره ، وتقبل وجنته ، وتقدم له الشاى فى طبق فنجانها كأنه طفل صغير ، فسره

ذلك كثيرا ، لأنه فى الواقع لم يكن أكثر من طفل غرير ، وأخذ يجفف عينيه من الدموع ، وقد أضاء محياه بابتسامة خائرة !

فقال لى السيد بعد أن ظل يرقبهما لحظة :

ـ أوه ! .. سوف يطيب له العيش هنا كثيرا ، اذا استطعنا أن نحتفظ به هنا يا ايلين .. فان صحبة طفلة فى سنه لن تلبث أن تنفث فيه روحا جديدة ، وسوف تساعده رغبته فى الاستزادة من الصحة والقوة ، على اكتسابهما سريعا ..

فقلت فى نفسى : أجل .. اذا استطعنا أن نحتفظ به هنا ! .. فقد اكتنفتنى موجة من الريبة والتوجس الأليم ، من انه لم يكن ثمة فى ذلك غير أمل ضئيل .. ورحت أفكر كيف يمكن لهذا الغلام العليل الهزيل أن يعيش فى « مرتفعات ويذرنج » ؟ .. وأية رفقة تلك التى ستجمع بينه وبين أبيه وهيرتون ، وأية دروس تلك التى سوف يتلقاها عنهما ؟

ومن المؤلم أن شكوكنا سرعان ما تحققت ، بل بأسرع مما كنت أتوقع .. كنت قد أخذت الصغيرين الى الطابق العلوى ، بعد أن انتهيا من تناول الشاى ، وانتظرت بجانب لينتون حتى استغرق فى النوم ـ اذ لم يشأ أن أفارقه حتى ينام ـ ثم نزلت الى الطابق الأرضى حيث وقفت الى جوار المائدة فى البهو أشعل شمعة لحجرة نوم مستر ادجار ، عندما قدمت خادمة من المطبخ لتقول لى أن جوزيف ، خادم مستر هيثكليف ، بالباب يطلب التحدث الى السيد .. فسرت فى بدنى رعدة عنيفة ، وقلت :

ـ سوف أسأله أولا عما يرغبه ، فانها ساعة غير ملائمة لازعاج الناس ، وفى اللحظة التى يعودون فيها من رحلة

طويلة .. ولست أظن السيد على استعداد لأن يراه ..

وكان جوزيف قد عبر المطبخ ، بينما كنت أنطق بهذا القول، ودلف الى البهو .. كان متسربلا في رداء الأعياد والآحاد ، وقد اكتسى وجهه الهضيم سمة من المشاكسة والتظاهر بالتقوى .. وكان يمسك قبعته بيد ، وعصاه باليد الأخرى ، وقد راح ينظف حذاءه فى ممسحة الأرجل ..

فقلت له ببرود :

ـ طاب مساؤك يا جوزيف .. اى أمر أتى بك الى هنا الليلة ؟

فأجاب وهو يزيحنى بيده جانبا فى ازدراء :

ـ انه مستر لينتون الذى أريد أن أتحدث اليه ..

ـ ان مستر لينتون على وشك الذهاب الى الفراش ، فاذا لم يكن ما تريد قوله له شيئا هاما ، فاننى على يقين من انه غير مستعد لسماعه الآن ..

ثم تابعت كلامى قائلة :

ـ وخير لك أن تجلس ، وتعهد الى برسالتك ..

فراح يجيل أنظاره فى الأبواب المغلقه المتجاورة ، ثم قال :

ـ أيها حجرته ؟

فأدركت أنه مصر على رفض وساطتى ، وهكذا صعدت فى نفور بالغ الى المكتبة ، وأعلنت للسيد مقدم ذلك الزائر الذى يحضر فى وقت غير ملائم للزيارة ، ناصحة له بأن يرفض مقابلته ويستمهله الى اليوم التالى .. ولكن قبل أن يتسع الوقت أمام مستر لينتون ليفوضنى فى أداء ذلك ، كان جوزيف قد صعد فى أعقابى ، واندفع الى داخل الحجرة حيث وقف عند طرف المائدة القصي ، واضعا كلتا قبضتيه

فوق قمة عصاه ، ثم اندفع يقول بصوت جهورى ، كأنما كان يتوقع معارضة أو رفضا لمطالبه :

— لقد أرسلنى هيثكليف لأخذ غلامه ، ولن أعود بدونه !

فأخلد ادجار لينتون الى الصمت لحظة ، وقد خيمت على أساريره سحابة من الحزن البالغ .. انه من جانبه خليق بأن يشفق على الغلام ويرثى لحاله ، فوق انه ذكر آمال ايزابيلا ومخاوفها وتمنياتها المتلهفة لولدها ، عند ما استودعته اياه وعهدت به الى عنايته ورعايته ، فاستبد به حزن مرير لمجرد التفكير فى التخلى عنه ، وراح ينقب فى أعماق فكره وقلبه عن طريقة يتجنب بها الاستسلام لطلب هيثكليف .. ولكن القريحة لم تسعفه بأية خطة تستهدف هذه الغاية ، كما أنه لو كشف عن أية رغبة فى الاحتفاظ بالغلام ، فان ذلك سوف يزيد أباه تشبثا واستمساكا به .. ولم يبق أمامه الا أن يسلده لأبيه .. ولكنه ، مهما يكن من أمر ، لن يرضى بايقاظه من النوم فى هذه الساعة ..

وعندئذ قال فى هدوء :

— أخبر مستر هيثكليف أن ابنه سوف يأتى الى «مرتفعات ويذرنج» غدا .. فانه فى فراشه الآن ، وفى حالة من الاعياء لا تسمح له بقطع هذه المسافة الطويلة .. ويمكنك أن تخبره أيضا أن والدة لينتون كانت تود ان يبقى فى رعايتى ، اذ أن صحته الآن ضعيفة وتحتاج للمزيد من العناية ..

فصاح جوزيف وهو يدق الأرض بعصاه ، ويقول بلهجة آمرة :

ــ كلا.. ان ذلك لا يعنى شيئا بالنسبة له.. فان هيثكليف لا يقيم وزنا للأم ، ولا لك ! .. ولكنه سوف يسترد ابنه ، ولا بد لى من أخذه الآن !

فقال مستر لينتون فى حزم وصرامة :
ــ ان تأخـذه الليلة .. والآن ، انزل حالا ، واذهب الى سيدك فأعد على مسـامعه ماقلته لك .. خذيه ياناللى الى تحت .. اذهب !

ثم أمسك بذراع العجوز الثائر ودفعه الى خارج الحجرة ، وأغلق الباب دونه .. فصاح جوزيف وهو ينسحب فى بطء وتمهل :

ــ حسنا جدا .. سوف يحضر بنفسه غدا .. وعليك أن تطرده هو الآخر ، اذا جرؤت !

الفصل العشرون

رأى مستر لينتون ، تجنبا لخطر تنفيذ هذا الوعيد ، أن يكلفنى بأخذ الصبى الى دار ابيه ، فى الصباح الباكر ، على مهر كاثرين الصغير ، ثم أضاف قائلا :

ــ ما دام أمر هذا الغلام قد خرج من يدنا الآن ، ولم يعد لنا سلطان على مصيره ومستقبله ، سواء أكان حسنا امسئيا، فانه يجب عليك الا تذكرى لابنتى كلمة واحدة عن المكان الذى ذهب اليه .. لأنها لايمكن أن تتصل به من الآن فصاعدا ، ومن الخير لها أن تظل جاهلة بوجوده فى مكان قريب ، لئلا يستبد بها القلق ، وتتوق الى زيارة « المرتفعات » لرؤيته .. قولى لها فقط أن أباه قد بعث فى طلبه فجأة، فاضطر الى فراقنا..

وقد أظهر لينتون الصغير تمنعا ونفورا من ايقاظه من فراشه فى الساعة الخامسة ، وأبدى دهشته البالغه عند ما أخبرته بوجوب الاستعداد لرحلة جديدة .. ولكنى هونت عليه الامر بأن قلت له انه ذاهب لقضاء بعض الوقت مع أبيه ، مستر هيثكليف ، الذى اشتدت رغبته فى رؤيته بحيث لم يطق تأجيل هذه السعادة حتى يرتاح الغلام من رحلته الطويلة ..

فصاح الغلام فى حيرة غريبة ودهشة بالغة :

ــ أبى ؟.. أبى أنا ؟.. ان امى لم تذكر لى قط ان لى ابا ! .. واين يقيم هذا الأب ؟.. اننى أفضل البقاء مع خالى ..

ــ انه يقيم على مسافة قريبة من « الجرانج » .. وراء هذه التلال تماما .. والمكان لايبعد كثيرا عن هنا بحيث يمكنك أن تأتى سيرا على الأقدام عند ما تستكمل صحتك وتستعيد قواك .. ثم انك يجب ان تسر للذهاب الى دارك ورؤيه أبيك .. وعليك أن تحاول ان تحبه ، كما كنت تحب أمك ، وعندئذ سوف تجد منه كل حب وشغف بك ..

فسألنى لينتون :

ــ ولكن لماذا لم أسمع عنه من قبل ؟ .. ولماذا لم تكن أمى تعيش معه كسائر الناس ؟..

ــ كانت أعماله تستلزم بقاءه فى الشمال ، على حين كانت صحة والدتك تقتضى اقامتها فى الجنوب

فعاد الغلام يسأل فى الحاح :

ــ ولماذا لم تحدثنى أمى عنه اذن ؟.. لقد كانت تحدثنى كثيرا عن خالى فتعلمت أن أحبه من زمن طويل .. فكيف يمكن أن احب ابى ، وانا لا اعرفه ؟ ..

فقلت :

ـ أوه !.. ان الأطفال جميعا يحبون والديهم .. ولعل والدتك خشيت أن ترغب فى الذهاب الى أبيك والاقامة معه اذا أكثرت من التحدث عنه أمامك . ولكن لنسرع الآن ، فان الركوب مبكرا فى مثل هذا الصباح المشرق الجميل خير من النوم ساعة أخرى ..

ـ وهل هى ذاهبة معنا ؟ .. تلك الفتاة الصغيرة التى رأيتها أمس ..

فأجبته : كلا .. انها لن تذهب الآن ..

فأردف يسألنى : وهل يذهب خالى معنا ؟ ..

قلت : كلا .. سوف تذهب الى هناك فى رفقتى ..

فعاد يستلقى فى فراشه ويدس رأسه فى الوسادة ، وقد استغرق فى التفكير وعلا القطوب أساريره ، وما لبث ان انخرط فى البكاء قائلا :

ـ اننى لن أذهب من غير خالى .. فما أدرانى الى أين تريدين ان تأخذينى !

وحاولت اقناعه بأن اظهاره النفور من لقاء أبيه أمر غير كريم .. ومع ذلك ظل يقاوم ، فى عناد واصرار ، محاولاتى تهيئته للخروج ، حتى اضطررت الى الاستعانة بالسيد لملاطفته وملاينته حتى ينهض من الفراش .. وأخيرا قام الغلام المسكين ، بعد ان بذلنا له الوعود والتأكيدات ـ الزائفة طبعا ـ بأن غيابه لن يطول ، وأن مستر ادجار وكاثى سوف يزورانه هناك ، وغير ذلك من الوعود « الزائفة » الأخرى التى كنت أخترعها وأرددها على مسامعه بين وقت وآخر أثناء الطريق .. وقد اثر فيه الهواء النقى المنعش المحمل بعبير الزهور

البرية ، وأشـعة الشمس المشرقة ، والخبب الرقيق للمهر « مينى » ، باشاعة الأمل والهدوء فى نفسه واحلالهما محل الاضطراب والقنوط .. فلم تمض لحظات على مسيرنا حتى بدأ يمطرنى بالأسـئلة عن بيته الجـديد ، وعن قاطنيه ، فى اهتمام وحيوية متزايدين .

فقد استدار ليلقى نظرة أخيرة على الوادى الخصيب الذى كان يتصاعد منه ضباب رقيق فيتجمع فى سحابة أشـبه بالقطن المندوف عند حافة القبة الزرقاء ، وما لبث أن سألنى :

— هل « مرتفعات ويذرنج » مكان بهيج مثل « ثرشكروس جرانج » ؟ ..

فأجبته :

— انه غير محاط بالأشجار الكثيفة مثله ، كما أنه ليس فى سعته وفسحته .. غير أنك هناك تستطيع أن ترى جمـال الريف حولك على مدى بعيد .. ثم أن الهواء هناك سـوف يساعد على تقـدم صحتك ، اذ هو أكثر جفـافا وعذوبة .. ولعلك ، فى بادىء الأمر ، تجد المبنى عتيقا قاتمـا ، مع أنه منزل محترم يعد ثانى اثنين هما أفضل منازل هذه المنطقة .. وسوف تستمتع بجولات لطيفة بين الأحراش ، كما أن هيرتون ايرنشو — وهو ابن خال مس كاثى ، وبالتالى يعد قريبا لك — سوف يريك أجمل المواقع واروع المناظر .. وسـيكون فى وسعك أن تحمل كتابا ، عنـد ما يكون الجو جميلا ملائمـا ، فتتخذ من العشب الأخضر ركنا للدرس والاستمتاع بالقراءة .. كما أن خالك قد يصحبك فى نزهة على الأقدام ، فانه كثيرا مايخرج للمشى فوق التلال ..

— وما شكل أبى ؟ .. أهو شاب كخالى ، وفى وسـامته وظرفه ؟ ..

ـ انه فى مثل سنه ، ولكنه اسود الشعر والعينين ، وأكثر منه عبوسا وصرامة .. وهو أطول قامة ، وأعظم هامة .. ولعلك لاتجده ، فى بادىء الأمر ، رفيقا عطوفا ، لأنه ليس من طبعه أن يكشف عن عواطفه .. ولكن عليك أن تكون معه صريحا ودودا .. ومن الطبيعى أن يزداد حبا لك وولعا بك أكثر من أى عم او خال ، لأنك ابنه ..

فغمغم لينتون :

ـ أسود الشعر والعينين ؟.. اننى لا أستطيع أن اتصوره .. وعلى ذلك فانى لا اشبهه ، اليس كذلك ؟ ..

ـ لا تشبهه كثيرا ..

ولكنى قلت فى نفسى وأنا أنظر اليه : « بل انك لا تشبهه البتة » .. بينما رحت أتأمل بشرته الناصعة البياض وجسده النحيل ، وعينيه الواسعتين الناعستين ، اللتين تشبهان عينى امه، الا انهما لايشع منهما اىاثر لروحها الوثابة المتلألئة، فيما عدا لحظات خاطفة تومضان فيها من اثر المرض الذى ينهكه..

وتنبهت على صوته وهو يغمغم :

ـ أليس من العجيب أنه لم يحضر قط لرؤية أمى او رؤيتى ؟ .. فهل رآنى من قبل ؟ .. ان كان قد فعل ، فلا بد أننى كنت طفلا صغيرا ، لأننى لا أذكر أقل شىء عنه !

فأجبته :

ـ لا تنس ياسيد لينتون أن ثلاثمائة ميل مسافة عظيمة ، كما ان عشر سنوات تبدو مختلفة فى طولها فى نظر شخص كبير عما هى فى نظرك أنت .. ولعل مستر هيثكليف كان يعتزم الذهاب اليكما من صيف لآخر ، ولكنه لم يجد الفرصة

المواتيـة قط ، حتى فات الأوان الآن .. وارجو الا تزعجـه بالأسئلة فى هذا الأمر ، فان ذلك سـوف يضـايقه ، دون جدوى أو فائدة ..

وشغل الغلام بالاستغراق فى أفكاره وتأملاته بقية رحلتنا ، حتى وقف بنا المهر أمام بوابة الحديقة عند المنزل الريفى .. ورحت أراقبه خفية لأتبين فى اساريره المشاعر التى تختلج بها نفسه ، فرأيته يتأمل الواجهة المنقوشة ، والنوافذ ذات الحوافى المنخفضة ، وخمائل عنب الديب المتناثرة ، وأشجار الحور المائلة على سوقها ، فى اهتمام بالغ رصين ، ثم يهـز رأسه ! .. كانت مشاعره الخاصة تفيض استهجانا للمنظر الخارجى لمقره الجديد ، ولكنه كان من اللبـاقة بحيث أرجأ تذمره وشكواه ، لعله يجد فى الداخل مايعوضه عن هــذا القبح الذى أثار اشمئزازه ..

وقبل أن يترجل عن مهره ، مضيت وفتحت البـاب .. كانت الساعة وقتئذ قد بلغت السادسة والنصف ، وكانت الاسرة قد فرغت لتوها من تناول طعـام الافطار ، وأخـذت الخادم فى ازالة بقايا المائدة وتنظيفها .. وكان جوزيف يقف بجوار مقعد سيده ويتحدث اليه عن جواد أعرج ، على حين كان هيرتون يستعد للذهاب الى حقل الدريس ..

فلما وقعت أنظار مستر هيثكليف على ، هتف قائلا :

ــ أهلا بك ياناللى ! .. لقد كنت أخشى ان أضطر للذهاب بنفسى الى « الجرانج » لأخذ ما أملكه .. ولكننى أراك أحضرته الى هنا ، اليس كذلك ؟.. دعينا نرى مايمكن ان نصنعه به !

ثم نهض من مجلسه ، ومشى الى الباب بخطواته الواسعة ، يتبعه جوزيف وهيرتون وقد تملكهما الفضول وحب الاستطلاع .. فأجال لينتون المسكين عينيه المرتاعتين فى الوجوه الثلاثة

التى كانت تتطلع اليه ..

وبدأ جوزيف قائلا ، بعد أن تفحصه فى صرامة وامعان :

ـ يقينا أنه بادلك أيها السيد ، وأرسل لك ابنه هو !

أما هيثكليف فقد ظل يحدج ابنه بنظرات متفرسة حتى أصابت الغلام نوبة من الاضطراب والارتباك ، وعندئذ أطلق ضحكة ساخرة عالية وهتف يقول :

ـ ماشاء الله ! .. ما أبهى هذا الجمال وما أروعه ! .. وما أحلاه من « شىء » ساحر فتان ! .. أترينهم كانوا يطعمونه القواقع واللبن الرائب يانللى ؟ .. آه ! .. ليمحق الشيطان روحى !.. ولكن ذلك أسوأ مما توقعت بكثير .. ويعلم الشيطان أننى لم أكن مغرقا فى الأمل والخيال !

فطلبت الى الطفل الحائر المرتعد أن يترجل عن مهره ، وأن يدخل البيت .. ولم يكن المنكود قد فهم تماما مايعنيه حديث أبيه ، أو هل كان هو المقصود به أم غيره .. والواقع انه لم يكن واثقا بعد ان ذلك الغريب المتجهم الذى يفيض لسانه بالسخرية اللاذعة هو أبوه .. ولكنه تعلق بى وقد ازدادت رعدته وارتعاشه .. فلما جلس مستر هيثكليف وصاح به : « تعال هنا » أخفى وجهه فى ذراعى وانخرط فى البكاء ..

فمد هيثكليف يده وجذبه حتى أوقفه بين ركبتيه ، ثم أمسك بذقنه ورفع رأسه عاليا وهو يقول :

ـ صه .. صه ! .. دعك من هذا الهراء .. اننا لن نؤذيك يالينتون .. أليس هذا اسمك ؟ .. انك ابن امك بأكملك ! .. فأين نصيبى فيك أيها الكتكوت البكاء !

ونزع قلنسوة الغلام ، ودفع الى الخلف غدائره الشقراء الكثيفة ، وراح يتحسس ذراعيه النحيلتين وأصابعه الصغيرة

.. وكف لينتون عن البكاء أثناء هذا الفحص الدقيق ، ورفع عينيه الواسعتين الزرقاوين يفحص بهما فاحصه !

وبعد أن اقتنع هيثكليف بأن أطراف الصبى كانت جميعا سواء فى الرخاوة والضعف ، سأله قائلا :

ـ هل تعرفنى ؟

فأجابه لينتون وفى عينيه نظرة خوف جوفاء : كلا ..

ـ لعلك سمعت عنى اذن ؟ ..

فأجابه ثانية : كلا ..

ـ أتقول كلا ؟.. ما اقبح ذلك من امك !.. الم توقظ فيك قط مشاعر الاحترام نحـو أبيك ! .. دعنى أخبرك اذن انك ابنى .. وأن امك كانت فاجرة شريرة اذ تركتك جاهلاحقيقة الأب الذى أنجبك ! .. والآن لاترع ولا تجفل منى ، ولا تدع وجهك يحمر هكذا .. ولو أن ذلك يعد شيئا عظيما أن نرى ان الدماء التى تجرى فى عروقك ليست بيضاء هى الأخرى .. وكن صبيا طيبا ، أكن لك خير الآباء ..

ثم التفت نحوى قائلا :

ـ وأنت ياناللى .. اذا كنت متعبة فيمكنك أن تجلسى .. والا فعودى الى بيتك !.. وأحسبك سوف تروين كل ماترينه وتسمعينه هنا لصاحب « الجرانج » التافه الحقير .. كما أن هذا «الشىء» لن يستقر أو يهدأ مادمت تحومين حوله ..

فأجبته :

ـ حسنا .. ولكنى ارجو أن تكون رفيقا بالصبى يا مستر هيثكليف ، والا فانك لن تستطيع الابقاء عليه طويلا .. واذكر انه كل ما لك من قرابة فى هـذا العالم ، بل كل ما سـوف يكون لك ..

فقال ضاحكا :

ـ لاتخشى عليه شيئا ، فسوف أكون رفيقا به غاية الرفق .. ولكن لا ينبغى لأحد غيرى أن يكون رفيقا به أو مشفقا عليه .. فانى غيور على احتكار عواطفه لنفسى ! .. وسوف أبدأ الرفق به من الآن ! .. اذهب ياجوزيف واحضر طعاما لافطاره .. وأنت ياهيرتون ، ايها العجل الشيطانى ، أمض الى عملك !

فلما خرج كل منهما لشأنه ، استطرد يقول :

ـ نعم ياناللى .. فان ابنى هو المالك المرتقب لأملاككم .. ولست أود أن يموت قبل أن اكون واثقا من اننى وارثه !.. وفضلا عن ذلك فانه ابنى ، وأريد أن أتمتع بلذة النصر عندما ارى عقبى يصبح المالك الوحيد لضياعهم واملاكهم ، وعند ما أرى ابنى يستخدم ابناءهم ليحرثوا ارض آبائهم وهم فيها اجراء يتلقون أجورهم من يده .. أن ذلك هو الاعتبار الوحيد الذى يجعلنى أطيق هذا الجرو .. اننى أحتقره لتفاهة شخصه ، وأمقته للذكريات البغيضة التى يثيرها فى نفسى.. ولكن هذا الاعتبار الذى ذكرته لك كاف كل الكفاية ، وهو معى فى أمان ، وسينال من الرعاية ما لايقل عما يضفيه سيدك على ابنته. .لقد أعددت له حجرة فى الطابق العلوى، وفرشتها بأثاث جميل .. كما عينت له مدرسا ، سوف يحضر ثلاث مرات كل اسبوع من مسافة عشرين ميلا، ليعلمه كل ما ينبغى ان يتعلمه .. وقد امرت هيرتون ان يطيع امره .. والواقع اننى رتبت كل شىء بحيث يظل محتفظا بروح السيادة والسمو على كل من يعيش معه .. ولو أننى أشعر بالأسف العميق اذ وجدته لا يستحق كل هذا العناء .. واذا كنت قد تمنيت

شيئا من السعادة فى هذه الدنيا ، فهو أن أجد ابنى شيئا ذا قيمة خليقا بالاعجاب والتقدير والزهو .. وهاأنذا اجد الخيبة المريرة والفشل الذريع مع هذا التعس الكالح الوجه الذى لا يكف عن الأنين والنواح !

وفيما كان يتحدث الى ، عاد جوزيف يحمل طبقا من عصيدة اللبن ، وضعه أمام لينتون الذى ظل يتململ أمام الطعام التقليدى للمنزل ، وينظر اليه شزرا ، ثم يقول انه لا يستطيع أن يأكله !.. ورأيت الخادم الشيخ يشاطر سيده سخريته بالغلام على نطاق واسع، ولو انه كان مرغما على الاحتفاظ بشعوره فى أعماق قلبه ، لأن هيثكليف كان جادا فى ارغام أتباعه على احترام الغلام واعتباره سيدا ..

فحملق جوزيف فى وجه لينتون ، وقال وهو يخفض من صوته خشية أن نسمعه :

ـ لا تستطيع أن تأكله ؟ .. ولكن السيد هيرتون لم يكن يأكل شيئا سواه قط عند ما كان صبيا صغيرا .. وأظن ان ما يصلح له يصلح لك تماما مثله ..

فأجابه لينتون فى لهجة آمرة قاسية :

ـ اننى لن آكله .. خذه من هنا ..

فاختطف جوزيف الطبق فى حنق وأحضره الينا ، حيث دفع به تحت أنف هيثكليف قائلا :

ـ هل فى هذا الطعام شىء يعيبه ؟ ..

ـ ما الذى يمكن أن يعيبه ؟ ..

ـ لست أدرى .. ولكن ذلك الصبى الرقيق الأنيق يقول انه لا يستطيع أن يأكله !! .. وأحسبه على حق ، فقد كانت أمه مثله تماما لا تستطيب طعامنا !

فأجابه السيد غاضبا :

ـ إياك أن تذكر أمه أمامى .. اذهب فأحضر له من الطعام ما يوافقه ويستطيع أن يأكله ، وهـذا كل شيء .. ما هو طعامه المعتاد يا نللى ؟..

فاقترحت أن يأتوا له بلبن ساخن أو قـدح من الشـاى ، وسرعان ما تلقت مدبرة المنزل التعليمات اللازمة لإعداد شيء من ذلك .. فسررت ، وقلت فى نفسى ان أنانية أبيه سوف تساهم فى تهيئة وسائل الراحة له ، فانه يرى تكوينه الضعيف وحاجته الى أن يعامل فى رفق بالغ .. ولسوف يتعزى مستر ادجار عند ما أخبره بالتحول الذى طرأ على خلق هيثكليف ..

واذ لم يعد لى عذر فى التوانى والبقاء أكثر من ذلك ، فقد تسللت خارجة ، بينما كان لينتون مشغولا ، يرد فى حيـاء ملاطفات أحد الكلاب .. ولكنه كان من التيقظ والانتبـاه بحيث لم يمكن خداعه .. فما كدت أغلق الباب ، حتى سمعته يصيح ويردد فى فزع هذه الكلمات :

ـ لا تتركينى !.. لا أريد البقاء هنا ! .. لا أريد البقـاء هنا ..

وعندئذ سمعت صرير المزلاج وهو يرتفع ويهبط ليوصـد الباب ، وأدركت انهم يحولون بينه وبين الخروج ، فأسرعت أمتطى ظهر المهر ، واستحثه على العدو ..

وعلى هـذا النحو انتهت مدة حراستى القصـيرة لليتيم الصغير ..

الفصل الحادي والعشرون

كانت مهمتنا مع كاثى الصغيرة شاقة مؤلمة فى ذلك اليوم .. فقد استيقظت من النوم وهي تفيض مرحا وسرورا ،

وتنلهف الى لقاء ابن عمتها .. وما أن بلغتها أنباء رحيله حتى راحت تذرف الدمع المرير ، وتنتحب فى نشيج أليم ، بحيث اضطر ادجار نفسه الى تهدئتها بالتأكيد لها بأنه سوف يعود ثانية ، وان كان قد احتاط فأردف قائلا : « ان استطعت اليه سبيلا » ، ولم يكن ثمت أمل فى ذلك .. وقد أفلح هـذا الوعد فى تهدئة روعها قليلا ، ولكن الزمن كان أعظم قدرة وأبعد أثرا .. فعلى الرغم من انها كانت لاتفتأ ، بين الحين والحين ، تسائل أباها عن موعد عودة لينتون ، فانها قبل ان يقدر لها أن تراه مرة ثانية ، كانت ملامحه قد اختلطت فى ذاكرتها وجللتها غلالة من النسيان ، بحيث لم تعرفه عند ما رأته !

وكنت كلما قابلت مدبرة منزل «مرتفعات ويذرنج» عند زيارتى لقرية « جيمرتون » لقضاء مهمة فيها ، سألتها عن حال السيد الصغير وصحته ، اذ كان يعيش في عزلة مثل كاثرين نفسها ، فلا يراه أحد ولا يرى أحدا .. فكنت استشف منها أنه لايزال على ضعف صحته ، وانه رفيق كثير النكد والمشاكسة .. وقد ذكرت لى أنه يبدو أن مستر هيثكليف يزداد له مع الأيام كراهية ومقتا ، وان كان يجهد فى اخفاء ذلك .. فقد كان شديد النفور من سماع صوته ، ولا يطيق جلوسه معه فى حجرة واحدة أكثر من بضع دقائق ، وقلما كانا يتبادلان من الحديث أكثر من كلمات معدودات .. فقد كان لينتون يستذكر دروسه ويقضى أمسياته فى حجرة صغيرة يطلقون عليها اسم « البهو » تجوزا ، أو يمضى يومه كله راقدا فى فراشه اذ لم تكن تفارقه نوبات السعال أو البرد أو الأوجاع أو الآلام من نوع ما .. وأضافت المرأة قائلة :

ـ وما رأيت فى حياتى مخلوقا رعديدا خائر القلب ، أو مفرطا فى الحرص على نفسـه مثل هـذا الصبى .. فانه

سوف يموت حتما اذا تركت النافذة مفتوحة قليلا عند حلول المساء.. واذا مسته نسمة من نسمات الليل العليلة فانها سلاح قاتل فتاك ! .. ولا بد من أن توقد له المدفأة فى أشد أيام الصيف حرا .. ودخان الطباق فى غليون جوزيف غاز سام سوف يقضى عليه ! .. وهو يصر على أن تكون لديه دواما أنواع مختلفة من الحلوى والفطائر .. اما اللبن فلا ينقطع عنه .. اللبن دائما أبدا .. وهو فى ذلك لايعبأ البتة بما يصيبنا من برد الشتاء القارس عند ما يغتال نصيبنا منه .. وترينه دائما يجلس فى مقعده بجوار المدفأة ، ملتفا بمعطفه ذى الفراء ، والى جانبه بعض الفطائر وقدح من الماء أو غيره من السوائل يضعه على رف المدفأة ليظل ساخنا فيرشف منه جرعة بعد أخرى .. واذا أشفق عليه هيرتون وأتى ليسليه قليلا ـ وهيرتون طيب القلب ، وان كان جافا خشنا ـ فانهما سرعان ما يفترقان وأحدهما يسب ويلعن والثانى ينشج بالبكاء والنحيب !.. وفى يقينى أن السيد كان خليقا بأن يسر كثيرا لو أن هيرتون ظل يضربه حتى يحيله جثة هامدة ، لولا انه ابنه . وكذلك اعتقد انه خليق بأن يطرده لو عرف نصف ما يضفيه الصبى على نفسه من رعاية وحيطة وتدليل ! .. ولكنه قلما يتعرض لخطر الاغراء بذلك، فانه لا يدخل « البهو » قط ، واذا أظهر لينتون شيئا من هذه الأساليب فى حجرة الجلوس حيث يقعد ، فانه يطرده من الحجرة ويأمره بالصعود الى الطابق العلوى على الفور..

وقد حدست من هذا الحديث أن حرمان هيثكليف الصغير من العطف والحنان كلية قد جعله أنانيا سيىء الخلق حتى ولو لم يكن كذلك أصلا .. وهكذا تضاءل اهتمامى به ، ولو أننى شعرت بنوع من الأسى لمصيره ، ووددت لو أنه ترك معنا ..

وكان مستر ادجار يشجعنى على الحصول على المزيد من المعلومات عنه ، وأحسب أنه كان يفكر فيه كثيرا ، ولا يتأخر عن المجازفة فى سبيل رؤيته .. وقد طلب الى مرة أن اسأل مدبرة المنزل ان كان يأتى الى القرية أحيانا ؟ .. فعلمت منها انه لم يذهب للقرية الا مرتين ، راكبا جوادا ، وفى صحبة والده .. وفى كل من المرتين كان يدعى أنه منهوك القوى ثلاثة أيام أو اربعة بعدها ..

وقد تركت تلك المرأة خدمة المنزل – اذا صدقت ذاكرتى – بعد عامين من مجيئه ، وخلفتها أخرى لم أكن أعرفها ، لاتزال هناك حتى الآن ..

ومرت الأيام « بالجرانج » على نهجها السابق البهيج ، حتى بلغت مس كاثى السادسة عشرة من عمرها .. ولم نكن نحتفى بعيد ميلادها على الاطلاق ، لأنه كان يوافق ذكرى وفاة سيدتى الراحلة .. وكان والدها قد اتخذ لنفسه عادة لا تتغير ، هى أن ينفرد بنفسه ذلك اليوم فى المكتبة ، ثم يسير عند الغسق الى فناء كنيسة جيمرتون حيث يطيل زيارته لقبر زوجته حتى منتصف الليل .. وهكذا كانت كاثرين تترك لتحتفل بعيد ميلادها بنفسها ، وبوسائلها الخاصة ..

وفى العشرين من مارس من ذلك العام، كان اليوم من أيام الربيع الجميلة المشرقة .. فما أن بدأ والدها اعتكافه حتى نزلت سيدتى الصغيرة ترتدى ثياب الخروج ، قائلة انها استأذنت أباها لتقوم بجولة عند أطراف البرارى والأحراش معى ، فأذن لها مستر لينتون بذلك ، بشرط أن نذهب الى مسافة قريبة وأن نعود بعد ساعة ، وأردفت كاثى صائحة :

– أسرعى اذن يا ايلين .. اننى أعرف اين أريد الذهاب ..

حيث يقيم سرب من طيور الأحراش ، اود ان ارى ان كانت قد أقامت أعشاشها بعد ..

فأجبتها :

ـ لابد أن يكون ذلك على مسافة بعيدة وارتفاع عال .. فالطيور لاتعشش عند أطراف البرارى ..

ـ كلا .. انها ليست مسافة بعيدة ، وقد ذهبت بالقرب منها مع أبى ..

فوضعت قلنسوتى واندفعت معها الى الخارج ، دون أن أعير الأمر اهتماما أو افكر فيه مرة ثانية .. وكانت تقفز أمامى فتسبقنى ، ثم تعود الى جانبى ، ثم تجرى أمامى من جديد كأنها كلب صيد صغير يرافق صاحبه .. ولقدتملكتنى ـ فى بادىء الأمر ـ نشوة من الطرب عند ما سمعت أصوات القنابر وهى تصدح من قرب ومن بعد ، واستمتعت بأشعة الشمس الدافئة اللذيذة ، وعندما رحت أرقب طفلتى المدللة وبهجتى الغالية ، بغدائرها الذهبية السابحة فى الهواء خلفها ، ووجنتيها المتوردتين المتألقتين، كأنهما فى نعومتهماوصفائهما ونضارتهما وردتان بريتان متفتحتان ، وعينيها اللتين تشعان بهاء ومرحا ولا تظللهما سحب المتاعب والأحزان .. كانت فى تلك الأيام مخلوقة سعيدة ، وملاكا طاهرا .. وليتها استطاعت، وقتئذ ، أن تقنع بما كانت فيه !

وما لبثت أن قلت :

ـ حسنا .. أين طيورك البرية يامس كاثى ؟ .. كان ينبغى أن نكون عندها الآن، فقد بعدنا عن بساتين « الجرانج » كثيرا ..

وكانت تجيبنى باستمرار :

ـ آه ! .. انها غير بعيدة من هنا .. هى على بعد قليل ياايلين .. تسلقى تلك الرابية ، واعبرى ذلك الجسر ، وما أن تصلى الى الجانب الآخر حتى تجدينى عند الطيور !

وكم من رابية تسلقتها وكم من جسر عبرته ، حتى بدأت أخيرا أحس بالتعب والاجهاد ، فقلت لها أننا يجب أن نتوقف ونعود ادراجنا .. وكانت قد سبقتنى بمسافة طويلة ، فطفقت أصيح منادية اياها ، ولكنها لم تسمعنى ، أو لم تكترث لندائى ، اذ ظلت تقفز هنا وهناك ، حتى اضطررت الى تعقبها .. وأخيرا اختفت عن ناظرى داخل تجويف بين التلال ، وقبل أن أراها ثانية كانت اقرب الى « مرتفعات ويذرنج » بميلين عنها الى منزلها .. وتبينت شخصين يمسكان بها ، كان أحدهما ـ فيما اعتقدت ـ مستر هيثكليف نفسه .. كانت كاثى قد ضبطت متلبسة بسرقة الطيور ، أو على الأقل بالعبث فى أعشاشها ، فان المرتفعات كانت ضمن أملاك هيثكليف ، وكان من حقه ان يعاقب من يسطو عليها .. فلما بلغت مكانهم ، وأنا أجر قدمى المكدودتين ، رأيتها ترفع يديها مؤكدة ماتنطق به ، وهى تقول :

ـ اننى لم آخذ شيئا ، ولم أجد شيئا .. ولم يكن فى نيتى أن آخذها لو وجدتها .. ولكن أبى أخبرنى بوجود الكثير منها هنا فوق التلال ، فوددت أن أرى البيض ..

فرمقنى هيثكليف بأنظاره وهو يبتسم ابتسامة شريرة تنم عن معرفته من تكون الفتاة ، وبالتالى عن نواياه الخبيثة نحوها ، ثم سأل عمن عساه يكون « اباها » .. فأجابته :
ـ انه مستر لينتون صاحب « ثرشكروس جرانج » .. وقد أدركت أنك لم تعرفنى والا ماخاطبتنى بهذه اللهجة !
فقال فى سخرية :

ـ أتحسبين اذن أن أباك عالى القدر رفيع المكانة موفور الاحترام ؟ ..

فراحت كاثرين تحدق فيه بأنظارها فى دهشة واستغراب، قائلة :

ـ ومن تكون أنت ؟ .. ثم اننى رأيت هذا الرجل من قبل، فهل هو ابنك ؟ ..

وأشارت الى هيرتون ، الذى كان ثانى الاثنين ، والذى لم يكن قد اكتسب الا زيادة فى الحجم والقوة فضلا عن عامين من عمره ، وان كان يبدو على ماعهدته فيه من خشونة وجلافة ..

فأسرعت اقاطعها قائلة :

ـ سوف يطول غيابنا ثلاث ساعات ، يامس كاثى، لاساعة واحدة .. ولا بد لنا حقا من العودة الى المنزل الآن ..

فأجابها هيثكليف وهو يزيحنى جانبا :

ـ كلا .. ان هذا الرجل ليس ابنى .. ولكن لى ابنا رأيته أنت من قبل أيضا .. ومع ان مربيتك فى عجلة ، الا اننى ارى من الخير لك ولها ان ترتاحا قليلا .. فهل لك أن تدورى حول هذه الدغلة ، وتسيرى الى منزلى ؟ .. انكما اذا ارتحتما قليلا فستعودان الى داركما فى وقت مبكر عما تفعلان لو سرتما الآن .. ثم انك سوف تلقين منا كل ترحاب ..

فهمست الى كاثرين انه لا ينبغى اطلاقا أن تلبى هذه الدعوة ، وأن تثق فى كلامى بأن هذه الزيارة أمر لا يمكن حدوثه ، فاذا بها تسائلنى بصوت عال :

ـ لماذا ؟ .. لقد تعبت من الجرى ، والعشب هنا ندى لا أستطيع الجلوس فوقه ، فدعينا نذهب ياايلين .. ثم انه

يقول اننى رأيت ابنه .. ولكنى أحسبه مخطئا فى ظنه .. وفى وسعى أن احدس أين يقيم .. فى ذلك المنزل الريفى الذى زرته أثناء عودتى من « صخور بنستون » ذلك اليوم .. ألست تقيم هناك ؟ ..

فأجاب هيثكليف :

ـ بلى .. وأنت يانللى ، امسكى لسانك ، فان زيارتها لنا سوف تكون مبعث سرور لها .. تقدم أمامنا باهيرتون مع الآنسة ، أما أنت يانللى فسوف تسيرين معى ..

فصحت ، وقد أخذت احاول التملص من قبضته على ذراعى :

ـ كلا .. انها لن تذهب الى مثل هذا المكان !

ولكنها كانت وقتئذ توشك أن تصل الى الدرج الخارجى للمنزل، بعد ان راحت تركض بأقصى سرعتها حول ادغال الأحراش .. ولكن المعين لمرافقتها لم يستمر فى مهمته ، فقد أسرع بالابتعاد عند جانب الطريق واختفى عن الأنظار ..

فاستطردت قائلة :

ـ ان ماتفعله يا مستر هيثكليف خطأ بالغ الخطورة .. فأنت تعرف انك لاتضمر خيرا .. سوف ترى الفتاة لينتون، وسوف تعود لتروى كل شىء لأبيها بمجرد وصولنا ، وبذلك ينصب اللوم كله فوق رأسى ..

ـ اننى أريدها على أن ترى لينتون ، فانه يبدو أحسن حالا هذه الأيام ، وهو قلما يكون فى حالة تصلح لأن يراه احد .. وسوف تقنعها الآن بأن تبقى امر هذه الزيارة فى طى الكتمان .. فأين الضرر فى ذلك ؟ ..

ـ الضرر فى ذلك هو أن والدها سوف يحنق على اذا تبين

أننى سمحت لها بدخول منزلك .. كما أننى مقتنعة تماما بأن لك غرضا خبيثا فى تشجيعها على ذلك

ــ بل ان غرضى شريف على قدر المستطاع ، وسأخبرك بكل تفاصيله فى صراحة .. فأنا أريد أن تتوثق الصلة بين ابن العمة وبنت الخال ، وان يتحابا ثم يربط الزواج بينهما .. وانى فى ذلك أسدى يدا كريمة الى سيدك نفسه .. فان ابنته الصغيرة لا أمل لها ولا مستقبل فى وراثته ، فاذا عملت بما يطابق رغباتى فان ذلك يكسبها الحق فى مشاركة لينتون ميراث خاله ..

ــ اذا مات لينتون ــ وهو أمر قريب الاحتمال لأن حياته غير مضمونة ــ فان كاثرين ستكون الوارثة ..

ــ كلا .. انها لن تكون الوارثة .. فليس فى الوصية نص يضمن لها ذلك .. وانما سوف تنتقل أملاكه الى .. ولكى نضع حدا لهذا الجدل العقيم ، أقول لك اننى أريد أن يتزوجا وقد استقر عزمى على تنفيذ ارادتى ..

فقلت له حانقة :

ــ أما أنا فقد استقر عزمى على ألا تقرب كاثى منزلك معى مرة أخرى ..

فأمرنى بأن ألزم الصمت ، اذ كنا قد وصلنا الى البوابة حيث وقفت مس كاثى فى انتظارنا .. ثم سبقنا فى الممر ليفتح لنا باب المنزل .. وكانت سيدتى الصغيرة لا تفتأ ترمقه بالنظرة تلو النظرة ، كأنما لا تستطيع أن تستقر على رأى قاطع فى حقيقة أمره .. وكان كلما التقت عيناه بعينيها ، ابتسم فى وجهها ، وكلما تحدث اليها رقق من صوته فى خطابها .. وقد بلغت بى البلاهة أن تصورت ان ذكرى أمها

قد تلين قلبه وتحول دون رغبته فى ايذائها . .

وكان لينتون يقف بجوار المدفأة ، وقد عاد من نزهته بين الحقول ، اذ كان لايزال مرتديا قبعته وكان يطلب الى جوزيف أن يأتيه بحذاء جاف .. وكان قد ازداد طولا بالنسبة لسنه، فما زالت تنقصه بضعة أشهر ليبلغ السادسة عشرة .. أما ملامحه فقد احتفظت بجمالها، وازدادت عيناه تألقا ، وبشرته توردا عما أذكره عنها .. ولو انه كان تألقا وقتيا اكتسبه من الهواء العليل والشمس الساطعة ..

وتحول مستر هيثكليف نحو كاثى ، سائلا :

ـ من هذا ؟ .. هل تعرفينه ؟ ..

فراحت تنقل انظارها بين الواحد والآخر فى تشكك ، قبل أن تجيب :

ـ أهو ابنك ؟ ..

ـ نعم .. نعم ولكن هل هذه أول مرة ترينه فيها ؟ .. فكرى قليلا .. آه ! .. ان ذاكرتك ضعيفة خائرة .. وأنت ، ألا تذكر ابنة خالك التى اعتدت ان « تهوسنا » برغبتك فى رؤيتها يا لينتون ؟ ..

فما أن سمعت الاسم حتى اضطرمت بالفرحة الطاغية والدهشة البالغة وصاحت قائلة :

ـ ماذا ؟ .. لينتون ؟ .. أهذا لينتون الصغير ؟ .. ولكنه يفوقنى طولا الآن ! .. هل أنت لينتون حقا ؟ ..

فتقدم الفتى نحوها مؤكدا انه بعينه .. فراحت تقبله فى حرارة بينما كانا يتبادلان نظرات العجب مما أحدثه الزمن من تغيير فى مظهر كل منهما .. كانت كاثرين قد بلغت غاية طولها ، وغدت ملفوفة العود فى غير بدانة ،

رخصة البدن فى قوة فولاذية ، تشع بالصحة والحيوية الدآفقة . . أما لينتون فكانت نظراته وحركاته واهنة ضعيفة ، وجسمه مفرط النحول ، ولكن كان فى مسلكه ومظهره رشاقة تلطف من هذه العيوب ، وتجعله يبدو مقبولا . .

وبعد أن فرغت من تبادل آيات الود العديدة مع ابن عمتها ، مضت نحو مستر هيثكليف الذى كان يقف بجانب الباب ، مقسما انتباهه بين داخل البيت وخارجه ، متظاهرا بالنظر الى الخارج وهو فى الحقيقة يرقب من فى الداخل فحسب . . فهمت على اطراف اصابعها لتقبله وهى تهتف قائلة :

ـ انك زوج عمتى اذن ؟ . . والله لقد احببتك ، رغم عبوسك وتقطيبك فى بادىء الأمر ! . . ولكن لماذا لا تحضر لزيارة « الجرانج » مع لينتون ؟ . . أليس من العجيب أن نكون جيرانا متلاصقين كل هذه السنين ثم لاتزورنا قط ؟ . . لماذا بالله فعلت ذلك ؟ . .

فأجاب :

ـ لقد زرت « الجرانج » مرة أو مرتين ، أكثر مما ينبغى ، قبل مولدك . . ولكن رويدك . . يا للعنة ! . . اذا كان لديك الكثير من القبلات ، فوفريها وامنحيها للينتون . . فانك تضيعينها عبثا فوق وجهى !

وتركته كاثرين ، وطارت الى لتهاجمنى بقبلاتها المسرفة وهى تصيح :

ـ وأنت يا ايلين . . أيتها الخبيثة الشريرة ! . . كم جاهدت فى منعى من الدخول ! . . ولكنى سوف أسير الى هنا كل صباح فى المستقبل . . هل تسمح لى بذلك ياعماه ؟ . . وهل احضر أبى معى أحيانا ؟ . . هلا يسرك أن ترانا ؟ . .

فأجاب « العم » وهو لايكاد يستطيع اخفاء القطوب الذى علا وجهه ، والناتج من نفوره من كلا الزائرين :

ــ آه .. طبعا .. طبعا ..

وما لبث أن واجه السيدة الشابة ، مستطردا :

ــ ولكن مهلا .. لقد فكرت فى الأمر ، ووجدت من الخير أن أخبرك بالحقيقة .. فان مستر لينتون ناقم على ، اذ تشاجرنا مرة فى حياتنا ، فى ضراوة وقسوة .. ولو ذكرت له شيئا عن قدومك الى هنا فسوف يعترض بشدة على زياراتك لنا .. ولذلك أرى انه لايجب أن تخبريه بهذه الزيارة ، الا اذا كنت قليلة الحرص على رؤية ابن عمتك فى المستقبل .. ان لك أن تحضرى كلما شئت ، ولكن لا تذكرى له ذلك ..

فسألته فى استخذاء : ولماذا تشاجرتما ؟ ..

ــ كان يرى أننى من الفقر بحيث لا أصلح زوجا كفؤا لأخته .. ثم حزن لفوزى بها ، واعتبر ذلك اهانة لكبريائه ، لا يمكن أن يغفرها لى البتة ..

فقالت الفتاة :

ــ هذا خطأ منه ، وسوف أخبره بذلك يوما من الأيام .. ولكنى ولينتون لاشأن لنا ولا دخل بمنازعاتكما .. وما دمت لن أحضر الى هنا ثانية ، فعليه أن يأتى الى « الجرانج » ..

فغمغم ابن عمتها :

ــ ان المسافة بعيدة لا أستطيع سيرها .. وسوف يقتلنى المشى أربعة اميال حتما .. كلا .. تعالى انت الى هنا يا مس كاثرين ، بين آن وآخر .. لا كل صباح كما قلت ، بل مرة أو اثنتين كل أسبوع !

فصوب هيثكليف نحو ابنه نظرة تفيض بالمرارة والازدراء ، وهمس يقول لى :

ـ أغلب ظنى ، ياايلين ، ان جهودى سوف تذهب هباء .. فان « مس كاثرين » ، كما يدعوها هذا الغلام التافه ، سوف تفطن سريعا الى حقيقة قيمته ، فتطرحه وراء ظهرها ، أو تبعث به الى الشيطان ! .. آه لو كان هيرتون محله ! .. أتعلمين أننى كثيرا ما اشتهيت لو كان هيرتون ابنى رغم ماهو فيه من ضعة الآن .. لقد كنت خليقا بأن أحب الفتى لو لم يكن ابن هندلى ! .. ولكنى أحسبه بمنجاة من حبها ! .. وسوف أدفع به لمنافسة هذا المخلوق الحقير ، الا اذا نفض هذا عن نفسه خموله .. والواقع اننا لا نقدر انه سوف يعيش حتى يبلغ الثامنة عشرة .. آه .. لعنة الله على هذا المخلوق التافه الهزيل ! .. انه منهمك فى تجفيف قدميه ، ولا يلقى اليها بالا أو اهتماما ! .. لينتون !

فأجاب الصبى : نعم يا أبتاه ..

ـ أليس لديك ماتصحب ابنة خالك لرؤيته خارج الدار ؟ .. ولو بعض الأرانب أو أعشاش ابن عرس ؟ ! .. خذها يابنى الى الحديقة ، قبل أن تستبدل حذاءك ، واصحبها الى الاسطبل لتريها جوادك ..

فتمتم لينتون مخاطبا كاثى فى نبرات تنم عن نفوره من التحرك من مكانه :

ـ ألا تفضلين الجلوس هنا ؟..

فتطلعت الفتاة نحو الباب فى نظرات متشوقة ، وبدا عليها التلهف الى الحركة والنشاط ، ثم أجابت فى استحياء :

ـ لست أدرى حقا !

وظل قابعا فى مقعده لا يفارقه ، بل لقد ازداد انكماشا والتصاقا بالمدفأة .. وعندئذ نهض هيثكليف ومضى الى المطبخ



« .. وظل جثمانها مكشوفا وقد نثرت فوقه الزهور واوراق الاشجار العطرية .. وكان لينتون يقضى الايام والليالى بجواره ، حارسا لا يغفل ولا ينام .. »

(صفحة ٢٥٥)

فاجتازه الى الفنـاء ، وسمعناه ينـادى هيرتون ، وسمعنا هيرتون يلبى النداء ، وما لبث الاثنان ان دخلا الى الحجرة .. وكان الشـاب يغتسل كما بدا فى توهج وجنتيه وشـعره الندى ..

فلما رأته مس كاثى ذكرت ماسمعته من مدبرة المنزل ذات يوم ، فصاحت قائلة :

— آه ! .. دعنى أوجه اليك سؤالا ياعماه .. أهذا ابن خالى حقا ؟ ..

— نعم .. انه ابن خالك .. أفلا تحبينه ؟ ..

فبدت الحيرة فى أسارير كاثرين ، فاستطرد قائلا :

— ألا تجدينه شابا لطيفا ؟ ..

فوقفت الفتاة الشقية على أطراف أصابعها وهمست فى اذن هيثكليف بكلمات انطلق على اثرها مقهقها .. فاربد وجه هيرتون وبان عليه الحرج ، فأدركت أنه شديد الحسـاسية لكلماينم عن الاستهانة بأمره ، وان لديه فكرة مبهمة عن ضآلة شأنه بالنسبة اهم .. ولكن سيده ، أو حاميه ، بدد عبوسته بأن قال موضحا :

— سوف تكون المفضل لديها بيننا ياهيرتون ، فهى تقول انك .. ترى ماذا قالت ؟ .. حسنا .. انه شىء شديد الاطراء لك .. فاذهب معها ، وطف بها انحاء المزرعة ، واسلك سبيل السيد المهذب ، فلا تنطق أمامها بكلمات غير لائقة ، ولا تحملق فى وجه الآنسة عند ما تكون غير منتبهة اليك ، واغضض من بصرك عنـد ما تنظر اليك .. واذا تحدثت اليها فانطق بكلماتك فى بطء ووضوح ، ولا تضع يديك فى جيوبك .. هيا .. اذهب معها الآن ، وكن معها مضيفا رقيقا على قدر ما تستطيع من لطف ورقة !

ثم أخذ يرقبهما وهما يمران امام النافذة ، فاذا هيرتون ايرنشو قد اشاح بوجهه تماما عن رفيقته ، وقد بدا كأنما يدرس المناظر الممتدة أمامه ، والمألوفة لديه ، فى اهتمام شخص غريب يراها للمرة الأولى ، أو استغراق فنان يرى فيها ما يشوقه ..

وراحت كاثرين ترمقه من طرف خفى ، فى نظرات، تنم عن الاعجاب به الى حد ما ، ثم مالبثت أن انصرفت عنه الى البحث عن الأشياء التى تثير فضولها وتسليتها ، وهى تتواثب من مكان لآخر ، وتترنم ببعض الألحان تعويضا لها عما يعوزها من حديث بسبب صمت رفيقها ..

ومضى هيثكليف يقول لى :

ــ لقد ربطت لسانه ، فلا يجرؤ على النطق بكلمة واحدة .. هل تذكريننى يانللى عندما كنت فى مثل سنه .. لا ، بل أصغر منه ببضع سنين ؟.. وهل ظهرت قط بمثل هذا الغباء ، أو هذا « التنطع » كما يسميه جوزيف ؟ ..

ــ بل اسوأ منه .. لأنك كنت اكثر تجهما وعبوسا !

فتابع كلامه ، كأنما يحدث نفسه ، أو ينطق بما يجول بخاطره :

ــ اننى أجد فيه مايسرنى ويشفى غليلى ، ويرضى كل ماعلقته عليه من آمال ! .. ولو انه ولد أبله أو معتوها لما شعرت بنصف ما أستمتع به الآن من سرور ورضى .. ولكنه ليس معتوها .. وفى وسعى أن أرثى لكل ما يخالجه من مشاعر واحاسيس ، لأننى انا نفسى عانيتها يوما من الأيام .. وانى أعلم كل ما يكابده الآن تماما .. ولكنها ، مع ذلك ، مجرد بداية لما سوف يكابده ويعانيه فيما بعد .. ولن يكون

فى قدرته قط أن ينتشل نفسه من أعماق الجهالة والجلافة التى تردى فيها .. فقد استطعت أن اظفر به بأسرع مما ظفر بى والده الوغد ، وأن أرمى به الى احط مما رمانى .. فانه يتيه فخرا بجلافته وفظاظته .. وقد علمته كيف يسخر ويزدرى كل ماليس حيوانيا ، وأن يعده سخفا وضعفا .. أفلا تظنين ان هندلى كان يمكن ان يفخر كثيرا بابنه ، لواتيح له ان يراه الآن ؟ .. الا يفخر بابنه مثلما أفخر أنا بابنى هذا ؟ .. ولكن هناك فرقا شاسعا بينهما .. فأحدهما ذهب خالص ولكنه يستخدم كبعض حجارة الطريق .. والثانى صفيح رخيص ولكنه يصقل ليحاكى آنية من الفضة !.. ان ابنى خلو من أى شىء ذى قيمة ، ومع ذلك فاننى أستحق الثناء اذ أجعله يمضى الى أبعد مايمكن لشىء تافه مثله ان يبلغه .. اما ابنه هو فان له ميزات وصفات من الطراز الأول ، ولكنها ضائعة .. وقد قبرت وطمرت فى التراب حتى غدت أسوأ من عدمها .. فأنا ليس لدى ماآسف عليه .. أما هو فانه خليق بأن يكون أشد أسفا واسى من اى انسان عرفته .. وأحسن مافى الأمر ان هيرتون مولع بى ولعا شديدا.. ولعلك تعترفين بأننى فى ذلك قد بززت هندلى وتفوقت عليه .. فلو ان الوغد الميت استطاع ان يقوم من قبره ويأتى ليناقشنى الحساب على مافعلته بولده ، لأثلج صدرى برؤية ذلك الولد نفسه يهاجمه حتى يرده الى قبره ، وقد احنقه انه جرؤ على الاعتداء على الصديق الأوحد الذى له فى هذه الدنيا !

وأطلق هيثكليف ضحكة شيطانية اعجابا بهذه الفكرة !.. ولم أحر جوابا ، لأننى رأيت انه لم يكن ينتظر الجواب .. وفى الوقت نفسه كان رفيقنا الصغير — الذى كان يجلس

بعيدا عنا بحيث لم يسمع ما قاله أبوه - قد بدأ يتململ فى مقعده ويظهر علامات القلق .. ولعل ذلك كان ندما منه اذ حرم نفسه من متعة اصطحاب كاثرين خشية ان يناله بعض التعب .. ولاحظ أبوه نظراته القلقة الهائمة من خلال النافذة ، ويده المترددة وهى تمتد نحو قبعته وترتد عنها ، فصاح به فى حرارة مصطنعة :

- قم أيها الولد الكسول ، والحق بهما .. انهما الآن عند ركن المنزل ، بجوار خلايا النحل !

فاستجمع لينتون همته الخائرة، وغادر مكانه بجوار المدفأة .. وكان الباب مفتوحا ، وفيما كان يجتازه الى الخارج سمعت صوت كاثرين تسأل رفيقها المستوحش عن تلك الكتابة المنقوشة فوق الباب .. فراح هيرتون يحملق بأنظاره الى النقوش ، وهو يحك رأسه فى بلاهة تفوق بلاهة مهرجى الملاعب .. وما لبث أن أجاب :

- انها كتابة لعينة ، ولا أستطيع قراءتها !

فصاحت كاثرين :

- لا تستطيع أن تقرأها ؟.. اننى اقرأها بسهولة ، فانها كتابة انجليزية .. ولكنى اريد أن اعرف سبب وجودها فوق الباب

وعندئذ قهقه لينتون طربا ، وكان ذلك أول مظهر يبديه من مظاهر السرور والانشراح ، ثم قال لابنة خاله :

- انه لا يعرف الحروف الأبجدية ! .. فهل يمكنك أن تصدقى وجود مثل هذا الجهل الفاحش ؟ ..

فسألته مس كاثى فى جد واهتمام :

- هل هـــو شخص طبيعى مكتمل العقل كما ينبغى أن

يكون ؟ .. أم انه غر ساذج به شذوذ ؟.. لقد ألقيت عليه سؤالين منذ قليل فكان يبدو فى كل مرة من الغباء بحيث حسبته لا يفهمنى .. أما أنا فانى لا أستطيع فهمه حقا !

فانبعث لينتون يضحك من جديد ، وهو يرمق هيرتون بنظرات الشماتة والتشفى ، وكان من المؤكد أن الفتى فى تلك اللحظة لم يكن يبدو مجردا من ملكة الفهم ..

ومضى لينتون يقول :

ـ ليس به من شيء سوى البلادة والكسل ، أليس كذلك يا ايرنشو ؟.. ان ابنة الخال تحسبك أبله أو غبيا ، وهكذا تلقى عواقب سخريتك بما تسميه : « تعليم الكتب » .. ثم هل لاحظت ياكاترين طريقة نطقه المروعة ، علي غرار العوام من أهل يوركشاير ؟ ..

فزمجر هيرتون قائلا ، وهو أسرع بديهة فى اجابة رفيقه الدائم :

ـ وما الفائدة منها بحق الشيطان ؟ ..

وكان يهم بالمضى فى زمجرته شأوا بعيدا ، لولا أن الشابين أصابتهما نوبة من المرح الصاخب ، فانفجرا فى قهقهة متواصلة، وقد طربت آنستى الطائشة اذ تبينت أنهاتستطيع أن تجعل من لهجته الغريبة الريفية موضعا للمرح والتسلية.

وقال لينتون وهو يضحك ضحكة ناعمة خبيثة :

ـ وما فائدة « الشيطان » فى هذه العبارة ؟ .. لقدأمرك أبى بألا تفوه بأية كلمات غير لائقة ، وهاأنت لا تستطيع أن تفتح فمك دون أن تلوك واحدة منها ! .. هيا .. حاول أن تسلك مسلك السادة المهذبين ..

فصاح الشاب الريفي حانقا :

ـ لو لم تكن أقرب الى الفتاة منك الى الفتى لقضيت عليك فى التو واللحظة ، أيها المخلوق التافه الهزيل !

ثم أسرع بالابتعاد عنهما وقد اشتعل وجهه بنيران الغضب والمذلة معا ، فقد كان يشعر بعمق الاهانة التى أصابته ، وبعجزه عن الأخذ بثأره ..

وكان مستر هيثكليف قد سمع هذا الحوار ، كماسمعته، فابتسم مغتبطا اذ رآه ينصرف عنهما ، ولكنه أعقب ذلك بنظرة غريبة تفيض بالنفور والكراهية، حدج بها ابنه ورفيقته الثرثارين ، اللذين مضيا فى حديثهما عند مدخل البيت ، وقد وجد الفتى ماينعشه ويثير حيويته فى الحديث عن أخطاء هيرتون ونقائصه ، ورواية الأقاصيص عن تصرفاته ، كما استطابت الفتاة أقواله البذيئة الحقود دون أن تنتبه الى ماتنم عليه من سوء الطوية .. وعندئذ بدأت اكره لينتون ، أكثر مما كنت أرثى له ، وعذرت اباه فى احتقاره واستصغار شأنه ..

ومكثنا هناك حتى العصر ، اذ لم يمكنى أن انتزع مس كاثى قبل ذلك .. ولكن من حسن الحظ أن سيدى لم يكن قد غادر حجرته ، فظل جاهلا غيبتنا الطويلة .. وكنت أتلهف على اطلاع الآنسة الشابة على حقيقة أخلاق الناس الذين غادرنا بيتهم ، ولكنها كانت قد وضعت فى رأسها أننى متحاملة عليهم ، فصاحت قائلة :

ـ آه ! .. انك تنحازين الى جانب أبى يا ايلين .. ولقد تبينت الآن مقدار تحيزك ، والا لما خدعتنى كل هذه السنين بزعمك لى ان لينتون يقيم فى مكان بعيد جدا .. اننىشديدة الغضب منك حقا ، غير أن سرورى اليوم يطغى علي غضبى فيحول دون انفجاره ! .. ولكن عليك أن تمسكى لسانك عن زوج عمتى ! .. انه عمي ! .. فاذكرى ذلك جيدا وحذار أن

تنسيه ! .. أما أبى فسوف أعاتبه على شجاره معه !

وانطلقت فى الحديث على هذه النغمة حتى اضطررت الى التخلى عن كل محاولة لاقناعها بخطئها .. ولم تذكر شيئا عن الزيارة فى تلك الليلة ، لا لشىء الا لأنها لم تر مستر لينتون .. ولكن فى اليوم التالى افتضح السر كله ، لفرط كربى وغمى !

ومع ذلك فرب ضارة نافعة !.. فلم يكن الأمر من السوء كما تصورت .. اذفكرت فى أن مستر لينتون أقدر منى على حمل مسئولية التوجيه والتحذير ، وأقوى منى تأثيرا عليها .. غير أنه كان كثير التردد والتهيب فى اقناعها بالأسباب القوية التى تبرر رغبته فى قطع كل صلة لها بأهل «مرتفعات ويذرنج » ، كما كانت كاثرين لاتقنعها سوى المبررات القوية لكل قيد يفرض على حريتها أو يحد من رغباتها المدللة !

فما كادت تحييه تحية الصباح ، فى اليوم التالى ، حتى هتفت قائلة :

ـ هل بوسعك ، يا أبتاه ، أن تحدس من رأيت بالأمس فى نزهتى بين الأحراش ؟.. آه !.. أراك جفلت يا أبى !.. وقد خانك الحذر الآن ، أليس كذلك ؟ .. حسنا ، لقد رأيت .. ولكن اصغ الى وسوف تسمع منى كيف كشفت أمرك ، وامر ايلين ـ حليفتك ـ التى كانت ، مع ذلك ، تتظاهر بالاشفاق على ، عند ما كنت أعلل النفس بالأمل ويستبد بى القلق نحو عودة لينتون الينا ثانية !

ثم مضت تروى القصة الأمينة الكاملة لرحلتها وما انتهت اليه .. أما السيد ، فعلى الرغم من أنه كان يرمقنى بنظرات التأنيب أكثر من مرة ، الا أنه لم يقل شيئا حتى فرغت من قصتها ، وعندئذ جذبها اليه وسألها ان كانت تعرف لماذا

أخفي عنها وجود لينتون فى جوارنا القريب ؟.. وان كانت تظن ذلك لمجرد أنه يأبى عليها متعة بريئة لا ضرر ولا حرج من استمتاعها بها ؟ .. فأجابته :

ـ لقد كان ذلك لأنك تكره مستر هيثكليف ..

ـ اذن فأنت تعتقدين أننى من الأنانية بحيث أهتم بمشاعرى أكثر من اهتمامى بمشاعرك ياكاثى ؟.. كلا .. لم يكن ذلك لأننى أكره مستر هيثكليف .. بل لأن مستر هيثكليف هو الذى يكرهنى ، ولأنه أقرب الناس الى الأبالسة والشياطين ، يجد لذته فى الاساءة الى من يبغضهم وتدميرهم تدميرا عند أول فرصة يتيحونها له .. وكنت أعرف أنه مامن سبيل امامك الى توثيق عرى الود مع ابن عمتك دون أن تتصلى به وتلقيه .. وكنت أعرف كذلك أنه سوف يبغضك لأنك ابنتى .. وهكذا اتخذت وسائل الحيطة حتى لا ترى لينتون ثانية ، لمصلحتك أنت ، لا لأى سبب آخر .. وكان فى نيتى أن اشرح لك الأمر كله يوما من الأيام عند ما تكبرين، ويؤسفنى أننى توانيت فى ذلك ..

فقالت كاثرين ، وهى لاتبدو مقتنعة تماما :

ـ ولكن مستر هيثكليف كان ودودا في ترحيبه بى ياأبتاه ! .. ولم يبد أى اعتراض على لقاء أحدنا بالآخر او رؤيته له .. بل قال ان بوسعى الحضور الى منزله كلما طاب لى ، على ألا أخبرك بذلك ، لأنك كنت قد تشاجرت معه، ولن تغفر له زواجه من عمتى ايزابيلا .. أما أنت فلا تسمح لى بذلك .. فأنت وحدك الملوم الآن ياأبى !.. انه، على الأقل، راض عن توطيد صداقتنا ، أنا ولينتون .. أما أنت فتقف فى سبيلها !

واذ رأى السيد انها لاتريد ان تصدق مايتصف به زوج

عمتها من خلق شرير ، راح يروى لها فى ايجاز مسلكه مع ايزابيلا، ووسائل الغدر التى تملك بها « مرتفعات ويذرنج » : ولم يكن يطيق المضى فى هذا الحديث طويلا ، لأنه على الرغم من قلة ماذكره عنه ، الا انه كان يحس نحو عدوه القديم بذلك الروع نفسه وتلك البغضاء ذاتها اللذين كانا يملآن قلبه منذ وفاة مسز لينتون .. كان لايفتأ يردد فى فكره تلك العبارة المريرة : « كان يمكن أن تظل على قيد الحياة حتى الآن ، لولا مافعله بها » فكان هيثكليف يبدو فى عينيه قاتلا سفاكا .. ولكن مس كاثى — التى لم تعرف من أنواع الشرور سوى أفاعيلها الصغيرة التافهة، من العصيان أو العسف أو الانفعال، الناجمة عن طبعها الحامى ، وطيشها الصبيانى ، والتى كانت تندم عليها يوم حدوثها — ذهلت واستبدت بها الدهشة من هذا « القلب الأسود » الذى يستطيع أن يجتر الحقد والضغينة ، وينطوى على نية الانتقام كل هذه السنين ، ويتابع تدبير الخطط فى صبر وعزم دون أن يلم به شبح من تأنيب الضمير ! .. وبدت من التأثر والضيق بهذا المظهر الجديد من مظاهر الطبيعة البشرية — وهو شىء لم يسبق لها ان قرأت عنه فى دراساتها ، أو خطر ببالها حتى الآن — بحيث فضل مستر ادجار ان يكف عن متابعة الكلام فى هذا الموضوع ، فاكتفى بأن ينهى الحديث بقوله :

— سوف تعرفين فيما بعد ، ياعزيزتى ، لماذا أود أن تتجنبى منزل هذا الرجل وعائلته .. اما الآن ، فعودى الى مشاغلك وملاهيك السابقة، ولا تفكرى فيهم بعد ذلك قط ..

فقبلت كاثرين أباها ، وعكفت على دروسها فى هدوءزهاء ساعتين كعادتها ، ثم صحبته فى جولة بين الحقول.. ومضى اليوم كله كما تمضى سائر الأيام .. غير اننى عند ما أوت الى حجرتها فى المساء ، ولحقت بها لأساعدها فى ابدال

ثيابها ، وجدتها راكعة بجوار الفراش وقد انخرطت فى البكاء ..

فتعجبت من ذلك ، وهتفت بها قائلة :

ـ واها لك من طفلة بلهاء !.. لو أنك ذقت شيئا من الأحزان الحقيقية ، لخجلت من اراقة دمعة واحدة سدى لمثل هذه المعارضة التافهة لرغباتك ! .. فاحمدى الله ، يامس كاثرين ، على أن حياتك خلو من أى حزن جوهرى ، أو ظل لمثل هذا الحزن .. وفكرى لحظة لو أن السيد، وانا ، قضينا نحبنا ، ووجدت نفسك وحيدة فى هذا العالم ، فكيف يكون شعورك عندئذ ؟ .. قارنى بين ظروفك الحالية ومثل هذا المصاب الجلل ، واحمدى الله على ماأولاك من أصدقاء يحبون لك الخير ويسهرون على سعادتك ، بدلا من اراقة عبراتك فى اشتهاء المزيد من الأصدقاء !

فأجابت :

ـ اننى لا أبكى من أجل نفسى ياايلين ، وانما من أجله هو .. لقد كان يتوقع ان يرانى ثانية غدا ، ولكنه سوف يصاب بخيبة أمل شديدة .. وسوف يطول انتظاره عبثا ..

ـ هراء !.. فهل تحسبينه يفكر فيك بمثل تفكيرك فيه؟ .. اليس لديه رفيق هو هيرتون ؟ .. انك لاتجدين واحدا فى المائة من الناس يبكى فقد قريب له لم يره أكثر من مرتين فى أمسيتين متباعدتين !.. وسوف يدرك لينتون حقيقة الأمر ولا يشغل نفسه بالتفكير فيك بعد ذلك ..

فاستوت قائمة ، وهى تقول :

ـ ولكن هل لى أن أكتب اليه رقعة صغيرة أبين له فيها السبب فى عدم حضورى ، وارسل له معها هذه الكتب التى

وعدته باعارتها له ؟ .. ان كتبه ليست فى مثل طرافة كتبى، وكان يتلهف على الحصول عليها عندما حدثته عن جمالها وما فيها من بهجة وتسلية.. هل يمكننى أن أكتب اليه ياايلين؟..

فأجبتها فى حزم :

ـ محال أن يحدث ذلك .. ولن يحدث قط .. تكتبين اليه ، فيكتب اليك ، ثم لايقف الأمر بعد ذلك عند حد ؟ .. كلا يامس كاثرين .. ان هذه الصلة يجب أن تقطع نهائيا ، فهكذا يتوقع أبوك منك، وسوف أعمل على تنفيذ مشيئته..

فبدأت تلح من جديد ، وقد اكتست اساريرها بطابع التوسل والرجاء :

ـ ولكن يمكن لرسالة صغيرة واحدة أن ..

غير انى قاطعتها فى صرامة :

ـ صه !.. اننا لن نعود الى الحديث عن رسائلك الصغيرة .. هيا الى الفراش !

عندئذ رمقتنى بنظرة تقطر سما ، حتى لقد بلغ من أثرها فى نفسى اننى لم اقبل فى بادىء الأمر على تقبيلها كعادتى كل مساء ، واكتفيت باحكام الغطاء فوقها ، ثم أغلقت عليها الباب وقد ركبنى هم عظيم .. ولكنى ترددت فى منتصف الطريق ، وندمت على مسلكى ، فعدت اليها فى هدوء .. ويالمفاجأة ! .. كانت الآنسة تقف بجوار المنضدة وأمامها قطعة من الورق الأبيض، وفى يدها قلم من الرصاص أسرعت باخفائه عند دخولى ، وهى تشعر بذنبها .. وعندئذ بادرتها قائلة :

ـ انك لن تجدى من يحمل هذه الرسالة ياكاثرين ، لو

استطعت كتابتها .. ولكنى الآن سوف أطفىء الشمعة وأدعك فى الظلام ..

وعندما مددت يدى بقصبة الاطفاء لأخمد ضوء الشمعة المعلقة ، تلقيت لطمة شديدة على يدى ، وسمعتها تزمجر فى سخط « أيتها الشريرة ! » .. ولكنى لم ألق الى الأمر بالا ، وغادرت الحجرة فى سكون .. وعندئذ أوصدت المزلاج فى عنف شديد ، وقد تملكتها نوبة من نوبات النزق والمشاكسة المألوفة منها ..

ومع ذلك فقد أتمت رسالتها وبعثت بها الى المرسل اليه مع غلام لبان كان يحضر من القرية الى «الجرانج» .. ولكنى لم أعلم ذلك الا بعد انقضاء بعض الوقت .. فقد مرت الأسابيع ، واستعادت كاثى مرحها وانشراحها ، وان كانت قد غدت مولعة ، الى حد عجيب، بالتسلل الى الأركان والانفراد بنفسها .. وكنت اذا اقتربت منها فجأة ، وهى مستغرقة فى القراءة ، أجدها تجفل وتضم الكتاب الى صدرها كأنما تحاول اخفاءه ، وغالبا ماكنت ألمح أطراف اوراق منفصلة تطل من بين صفحات الكتاب .. بل لقد اتخذت لنفسها عادة جديدة ، وهى التبكير فى مغادرة حجرتها والنزول الى المطبخ حيث تظل تحوم حوله كأنما تنتظر وصول شىء لاأدرى كنهه ..

وكان لها فى احدى خزائن المكتبة درج صغير تظل تعبث بمحتوياته ساعات طويلة وتحرص كل الحرص على أخذ مفتاحه معها كلما انصرفت عنه .. فحدث ذات يوم ، بينما كانت منهمكة فى التنقيب فى درجها ، ان حانت منى نظرة الى الدرج ، فاذا بلعبها التى كانت تملؤه قد اختفت وحلت محلها بضعة من الأوراق المطوية .. فثار فضولى ، بل وشكوكى ، وعولت على أن ألقى نظرة على كنوزها الخفية ..

وهكذا ماكادت هى والسيد يأويان الى حجرتيهما ذات ليلة ، حتى رحت أبحث بين مفاتيحى حتى وجدت منها واحدا يفتح قفل ذلك الدرج ، ففتحته وأفرغت محتوياته جميعا فى ميدعتى ، ثم أخذتها الى حجرتى لأفحصها على مهل ، وفى مأمن من المفاجأة .. ومع اننى كنت أرتاب فى الأمر الى حد ما ، فقد كانت دهشتى بالغة اذ تبينت فى تلك القصاصات مجموعة من الرسائل - لابد أنها كانت يومية تقريبا - من لينتون هيثكليف، كان معظمها ردودا على رسائل بعثت بها اليه .. وكانت الرسائل الأولى مقتضبة يبدو فيها التعثر ، ولكنها مالبثت أن تحولت تدريجيا الى رسائل غرام غزيرة العاطفة ، مليئة بالسذاجة التى تبررها سن كاتبها ، وان كان بعضها ، مع ذلك ، يحوى لمسات رائعة ايقنت انه استعارها من مصدر أوفر خبرة وحذقا ! .. وراعنى ان الفيت بعضها خليطا بالغ الغرابة من الحرارة والصراحة ، يبدأ بالمشاعر القوية وينتهى بالعاطفة المشبوبة ، فى ذلك النوع من الكلمات التى قد يستخدمها طالب حدث فى مناجاة حبيبة روحانية من حوريات السماء ! .. ولست أدرى ان كانت هذه الرسائل قد اشبعت كاثى وارضت مشاعرها ، ولكنها كانت فى نظرى من سقط المتاع ! .. وبعد ان قلبت فيها حتى اكتفيت ، جمعتها فى منديل أخفيته عندى ، ثم عدت فأوصدت الدرج على خواء ..

ونزلت سيدتى الصغيرة مبكرة ، على عادتها ، وأخذت تحوم حول المطبخ ، فرحت أرقبها من طرف خفى حتى رأيتها تذهب الى الباب ، فى اللحظة التي قدم فيها غلام صغير معين .. وبينما كانت الخادمة تملأ له قدر اللبن ، رأيت كاثى تدس شيئا فى جيب سترته ، وتلتقط شيئا آخر من الجيب نفسه ، فى حركة سريعة خفية .. فتسللت ودرت

حول المنزل الى الحديقة ، وتربصت للرسول ، الذى راح يدافع فى نضال المستميت عن وديعته ، حتى انسكب اللبن على الأرض أثناء صراعه معى ، ولكني أفلحت اخيرا فى انتزاع الرسالة منه ، وانذرته بسوء العاقبة اذا لم يمض الى منزله قدما لايلوى على شىء .. ثم انزويت بجوار الجدار ورحت أقرأ رسالة مس كاثى الغرامية فى امعان ، فوجدتها أشد بساطة واعظم بلاغة من رسائل ابن عمتها .. كانت رسالة رائعة ، والحق يقال ، على رغم الحماقة التى كانت تنضح بها .. فهززت رأسي وكررت عائدة الى المنزل أقلب وجوه الرأى فى هذا الأمر ..

وكان اليوم مطيرا ، فلم تستطع كاثى القيام بنزهتها المعتادة فى البستان .. وهكذا ما كادت تفرغ من دروس الصباح ، حتى لجأت الى الدرج المعهود تنشد فيه تسليتها .. وكان أبوها جالسا الى جوار المائدة منهمكا فى القراءة ، أما أنا فقد تعمدت الاشتغال برتق اهداب ستائر النافذة، ورحت أرقب حركاتها بعين لا تغفل ..

وما من طائر عاد الى عشه ليجده خاويا وقد عاثت فيه يد عدو أثيم ، بعد ان كان قد تركه مليئا بأفراخ صغار تشيع فيه البهجة بزقزقتها الصداحة، بمستطيع أن يعبر عن اليأس القاتل والحزن المرير ، فى صرخاته وخفقات أجنحته ، بأكثر مما فعلت كاثى بتلك الشهقة الواحدة التى انطلقت من صدرها ، وذلك التحول الفجائى الذى اعترى أساريرها السعيدة فبدلها تبديلا هائلا مروعا ..

فرفع مستر لينتون رأسه وهتف بها قائلا :

— ماذا حدث ياحبيبتى ؟.. هل جرحت نفسك ؟..

فتحققت من لهجته ونظرته أنه لم يكن مكتشف ذخيرتها ، فقالت لاهثة :

ـ كلا ياأبى .. لاشىء .. ايلين ! .. ايلين! .. تعالى معى الى الطابق العلوى فانى مريضة !

فلبيت دعوتها وصحبتها الى خارج المكتبة ، فما كدنا نبلغ البهو العلوى ونوصد الباب خلفنا حتى هوت على ركبتيها ، وهتفت قائلة :

ـ أواه ياايلين ! .. انت التى أخذتها !.. آه .. رديها الى ، ولن أفعل ذلك مرة اخرى .. لن أفعل ذلك أبدا .. ولكن لا تخبرى أبى .. انك لم تخبرى ابى يا ايلين ؟ .. قولى انك لم تخبريه بالأمر ؟.. لقد كنت مفرطة فى الحماقة، ولكنى لن أفعل ذلك بعد الآن قط !

فخاطبتها فى رصانة وحزم وطلبت اليها أن تنهض قائمة، ثم قلت :

ـ اذن فقد مضيت فى هذا الأمر شأوا بعيدا فى الخفاء ، كما يبدو الآن يامس كاثرين ! .. لقد كان الأجدر بك أن تخجلى منها ، فلا تطلبيها ثانية ! .. فيالها من حزمة لطيفة من التفاهات تلك التى تقضين ساعات فراغك فى دراستها وحفظها ! .. ولماذا ؟ .. انها خليقة بأن تطبع وتنشر ! .. وماذا تحسبين السيد يرى فيها عندما أنشرها تحت ناظريه ؟ .. اننى لم اطلعه عليها بعد ، ولكنى لا أخالك تظنين لحظة اننى سوف احفظ اسرارك المضحكة هذه ! .. ياللعار ! .. لابد انك انت التى خطوت الخطوة الأولى فى تبادل هذه السخافات ، فانى موقنة من ان الفتى ليس خليقا بالتفكير فى مبادأتك بها !

فراحت تنشج بالبكاء وقد انسحق قلبها ، وهى تقول :

– اننى لم أفعل .. لم أفعل شيئا من ذلك .. ولم أفكر يوما واحدا فى حبه قبل ان ..

فقاطعتها صائحة بكل ماوسعنى من الاستنكار والازدراء :

– حبه ؟ .. ماشاء الله ! .. أتقولين « حبه » ؟.. وهل سمع أحد بشىء كهذا ؟.. أن فى وسعى أن أجاريك فأتحدث عن حب الطحان الذى يحضر مرة كل عام ليشترى منا الغلال! .. ما أجمله من حب ، حقا ! .. انك لم تقضى من حياتك فى المرتين اللتين رأيت فيهما لينتون أكثر من أربع ساعات ! .. فكيف تتكلمين عن الحب اذن ؟.. هذه هى تفاهاتك الصبيانية ، وسوف أذهب بها الى المكتبة ، وسأرى ماالذى يقوله ابوك عن مثل هذا الحب !

فوثبت على يدى لتنتزع منى كنزها الثمين ، ولكنى رفعته الى مافوق رأسى ، وعندئذ بدأت فى فيض من التوسلات التى انطلقت من فمها فى حرارة ولهفة ، راجية منى أن أحرق الرسائل أو افعل بها اى شىء الا أن أطلع اباها عليها .. واذ كنت فى الحقيقة اميل الى زجرها وتعنيفها بمثل ميلى الى الضحك منها (لأننى كنت أقدر أن الأمر كله لايعدو نزق الفتيات الصغار وغرورهن) فقد تظاهرت بالتفكير فى الأمر برهة ، ثم سألتها قائلة :

– اذا رضيت بحرقها ، فهل تعديننى وعدا صادقا بألا تبعثى اليه أو تتلقى منه رسائل أو كتبا – لأننى أرى انك قد ارسلت اليه بعض الكتب – أو خصلات شعر أو خواتم أو لعبا ؟ ..

فصاحت كاثرين وقد طغت الكبرياء على خجلها :

ـ اننا لانتبادل اللعب !

ـ أو أى شىء آخر يا سيدتى العزيزة اذن .. وسوف أذهب الى ابيك الآن مالم تبذلى لى هذا الوعد توا ..

فهتفت قائلة وهى تتشبث بثوبى :

ـ اننى أعدك ياايلين .. فهيا ضعيها فى النار .. هيا .. هيا ..

ولكنى عندما شرعت فى افساح مكان بين قطع الفحم بمحراك النار ، كانت التضحية أكثر من أن تطيق الفتاة احتمال آلامها ، فراحت تتوسل الى بأن أبقى على واحدة أو اثنتين من الرسائل ، قائلة وقد تمزق قلبها :

ـ واحدة او اثنتين فقط ياايلين ، من أجل خاطر لينتون !

ولكنى مضيت فى مهمتى الأليمة ، ففتحت ركن المنديل وبدأت اسقط الرسائل فى النار واحدة بعد الأخرى ، وألسنة اللهب تعلو فى المدفأة أقواسا ..

فصرخت كاثرين ودفعت يدها وسط النيران فأخرجت بعض الأوراق التى لم تجهز النار عليها واحترقت أطرافها فحسب ، غير مبالية بما يصيب أصابعها من تحريق ، وهى تصيح بى :

ـ سوف أحتفظ بواحدة أيتها القاسية الشريرة !

فأعدت الرسائل الباقية فى يدى الى المنديل ، وهممت بأن أخطو نحو الباب قائلة :

ـ حسنا جدا .. مازال لدى ما أريه لأبيك ..

عندئذ أفرغت فى الموقد ماكانت تطوى عليه يدها من اوراق مسودة الأطراف ، وراحت تستحثنى على انهاء هذه

المذبحة سريعا .. فلما فرغت من هذه المهمة جعلت أحرك الرماد لأجهزعليه ، ثم غطيته بملء مجرفة من كتل الفحم.. اما هى فقد انسحبت الى حجرتها الخاصة وقد أطبقت شفتيها دون أن تنبس بكلمة واحدة ، وبدا عليها الشعور بما نالها من اهانة فادحة ..

ونزلت لأخبر السيد أن ما اصاب الآنسة من توعك قد زال تماما ، وانني رأيت من الخير لها ان ترقد فى فراشها قليلا ..

ولم تنزل للغداء.. ولكنها ظهرت ثانية وقت تناول الشاى، فاذا بها شديدة الامتقاع وقد احمرت جفونها .. الا أنها كانت محتفظة بهدوئها الظاهرى الى حد يثير الاعجاب ..

وفى صباح اليوم التالى توليت الاجابة على الرسالة برقعة صغيرة قلت فيها :

« المرجو من السيد هيثكليف ألا يبعث بشىء من الرسائل الى مس لينتون بعد الآن ، لأنها لن تتسلمها .. »

ومن ذلك الوقت أصبح صبى اللبان يأتى بجيوب خاوية..

الفصل الثانى والعشرون

مر عيد القديس ميخائيل ، وأخذ الصيف يستحث خطاه راحلا ، والخريف يقبل مبكرا .. ولكن الحصاد كان متأخرا فى ذلك العام ، وبقيت قلة من حقولنا لم يتم حصادها بعد .. وكان مستر لينتون وابنته يخرجان كثيرا للتجول بين عمال الحصاد ، فكانا يبقيان معهم ، فى مراحل الحصاد الأخيرة ، حتى الغسق .. وكان الجو فى تلك الأمسيات رطبا شديد البرودة ، حتى أصيب سيدى ببرد شديد سكن رئتيه وابى

الرحيل عنهما ، كضيف ثقيل ، واضطره الى ملازمة الدار طيلة الشتاء لم يبرحها خلاله قط ..

أما كاثى المسكينة ، التى تملك الروع قلبها من مغامرتها الصغيرة ، فقد ازدادت حزنا ووجوما منذ ان اضطرت الى التخلى عن الاستمرار فيها ، فكان ابوها يلح عليها فى الاقلال من القراءة ، والاكثار من الخروج للنزهة .. واذ كانت قد حرمت رفقته ، فقد وجدت لزاما على أن اعوضها عن هذا الحرمان — على قدر الامكان — بصحبتى لها .. ولكن هيهات ان اسد الفراغ الذى خلفه ، فلم يكن فى وسعى أن افرغ من مشاغلى اليومية الكثيرة الا ساعتين أو ثلاثا اكرسها لمرافقتها .. ومع ذلك كان من الجلى انها كانت أقل ارتياحا الى رفقتى عنها الى صحبة أبيها ..

وبعد ظهر يوم من أواخر اكتوبر ، او اوائل نوفمبر — وكان يوما مطيرا ، للعشب فيه وللممرات حفيف ووسوسة ، مبعثهما اوراق الشجر الجافة الندية ، وللسماء الزرقاء الباردة فيه أقنعة من السحب الكثيفة كأنها سفن عظيمة تشق عباب السماء مصعدة من الأفق الغربى ، ومنذرة بحمولة من المطر الغزير — رجوت سيدتى الصغيرة أن تعدل عن جولتها ، لثقتى من هطول الأمطار كالسيول ، ولكنها رفضت وأمعنت فى الرفض .. فخرجت معها على مضض ، بعد ان تسربلت بمعطف كبير وحملت مظلتى ، وصحبتها فى السير حتى نهاية الحديقة ، وهى نزهة جافة متكلفة كانت تقوم بها عادة اذا انحرف مزاجها ، وكانت تبدو كذلك كلما اشتدت العلة بمستر ادجار وساءت حاله عن المعتاد .. وما كان ليبوح لنا بذلك قط ، وانما هو أمر نحدسه — كاثى وانا — كلما طال صمته ولاحت الكآبة والانقباض فى أساريره .. ومضت تسير فى خطى حزينة متمهلة ، لا تجرى ولا تقفز كعادتها ،

رغم أن الرياح الباردة كانت خليقة بأن تغريها بالعدو والتوثب .. وكنت أرمقها من طرف خفى ، فألاحظ بين الحين والآخر انها ترفع يدها لتمسح شيئا عن وجنتها .. فرحت اتطلع حولى باحثة عن شيء أغريها به لأسرى عنها واخرجها من لجة تفكيرها الحزين .. وكان على أحد جانبى الطريق مرتفع وعر تناثرت فيه بضعة من أشجار البندق والبلوط الضامرة وقد تعرى شطر من جذورها ، وأخذت تترنح غير مستقرة فى مواضعها .. وكانت التربة فى ذلك المرتفع من الرخاوة بحيث لم تحتمل أشجار البلوط ، فانحنى معظمها ، تحت دفع الرياح الشديدة ، ومال على الأرض فى وضع افقى .. وكانت مس كاثرين ، فى أيام الصيف ، تجد متعة فى تسلق جذوع هذه الأشجار ، والجلوس بين اغصانها ، تتأرجح على ارتفاع عشرين قدما من الأرض .. وكنت أبتهج كلما رأيت خفتها ورشاقتها ومرحها الصبيانى ولهوها المنبعث عن قلب خال من الهموم ، الا اننى ، فى الوقت نفسه ، كنت أجد من الأوفق ان أوجه لها اللوم كلما ضبطتها على هذا الارتفاع ، فكنت أفعل ذلك فى لهجة تدرك منها انه ليس ثمت ما يضطرها الى الهبوط ! .. كانت تظل منذ تناول الغداء حتى ساعة الشاى مضطجعة فى أرجوحتها التى يهزها النسيم ، لا تفعل شيئا سوى الترنم بالأغانى القديمة — اهازيج الطفولة التى كنت أهدهدها بها — او مراقبة الطيور فى اعشاشها ومشاهدة الأب والأم صاحبى العش وهما يطعمان أفراخهما ويغريانها على الطيران ، أو تستكن فى استرخاء ، مطبقة الجفون ، يتداولها التفكير وأحلام اليقظة ، ملأى بسعادة تقصر الكلمات عن وصفها ..

وأشرت الى فجوة صغيرة بين جذور شجرة ملتوية ، وصحت قائلة :

– انظرى يا آنسة ! .. ان الشتاء لم يحل هنا بعد .. فهذه زهرة صغيرة فوق المرتفع هناك ، هى آخر براعم زهور الليلك التى كانت تكسو السفح كله فى شهر يوليو بغلالة زرقاء رائعة الجمال .. فهل لك أن تتسلقى الهضبة ، وتقطفيها ، لتريها لأبيك ؟

فراحت كاثى تحدق النظر طويلا فى الزهرة الوحيدة التى كانت تهتز فى مثواها الأرضى ، قبل أن تجيب اخيرا :

– كلا .. لن امسها ؟ .. ولكنها تبدو حزينة مكتئبة .. الا ترينها كذلك يا ايلين ؟

– نعم .. فهى اشبه بك طهارة ونحولا .. اماترين وجنتيك الشاحبتين كأنهما خاليتان من الدماء ؟ .. هاتى يدك فى يدى ودعينا نجرى معا ، فانك اليوم من الاعياء بحيث أحسبنى قادرة على مجاراتك !

فلم تزد على أن قالت : كلا ..

واستمرت تمشى على مهل ، وهى تتلكأ هنا وهناك لتتأمل قطعة من الطحلب ، أو خصلة من العشب الجاف ، أو ثمرة من الفطر يشع لونها البرتقالى الفاقع بين اكوام أوراق الشجر الجافة السمراء .. وكانت ترفع يدها ، بين الحين والآخر ، الى وجهها ، وهى تشيح به بعيدا عن انظارى ..

فدنوت منها ، واحطت كتفها بساعدى ، وسألتها قائلة :

– كاثرين .. لماذا تبكين يا حبيبتى ؟ .. ما ينبغى لك أن تبكى لأن أباك أصيب بالبرد .. واحمدى الله انه لم يمرض بما هو اسوأ من ذلك ..

عندئذ اطلقت لدموعها العنان ، ولم تعد تعمد الى اخفائها

عنى ، وقد اختنق صوتها وانفاسها بنشيج متتابع ، وهى تجيبنى :

ــ آه !.. سوف يصبح مرضه اسوأ بكثير.. وماذا ترييننى فاعلة اذا ذهب ابى ، وذهبت انت ، وخلفتمانى وحدى فى العالم ؟ .. اننى لا استطيع ان انسى كلماتك يا ايلين ، فانها لا تكف عن الرنين فى أذنى .. فكيف تتبدل حياتى ، وكم يصبح العالم موحشا مخيفا امامى ، عندما يحين اجل ابى ، وتدركك المنية أنت الأخرى !

فأجبتها :

ــ لكل أجل كتاب ! .. ومن يدرى ، فقد تموتين قبلنا ! .. من الخطأ ان يتعجل المرء السوء قبل وقوعه ! .. فدعينا نرجو أن تنقضى أعوام وأعوام قبل ان يذهب احدنا .. ان السيد ما زال شابا ، وانا لم اتجاوز الخامسة والأربعين وما زلت قوية سليمة ، كما أن والدتى عاشت حتى الثمانين ، وظلت محتفظة بمرحها ونشاطها الى النهاية ! .. واذا فرضنا أن مستر لينتون عاش حتى يبلغ الستين من عمره ، فان الأعوام الباقية اكثر من التى انقضت من عمرك يا آنسة ، ومن السخف أن تحزنى على مصيبة لن تحل الا بعد عشرين عاما أو تزيد !

فتطلعت الى فى نظرات يمشى فيها الأمل على استحياء ، كأنما تنشد فى كلماتى المزيد من الطمأنينة والعزاء ، وغمغمت تقول :

ــ ولكن عمتى ايزابيلا كانت أصغر من ابى ..

ــ ان عمتك ايزابيلا لم تجد من يعنى بتمريضها مثلك ومثلى .. ولم تلق من أسباب السعادة ، مثلما يلقى السيد ،

كما لم يكن لديها ما يثير فيها حب الحياة والرغبة فى العيش .. ان كل ما يلزمك ، يا عزيزتي ، هو أن تحسنى رعاية ابيك ، وان تشيعى المرح والبهجة في نفسه بأن يراك دائما مرحة مبتهجة ، وان تتجنبى اثارة القلق فى نفسه من أية ناحية .. فاذكرى ذلك يا كاثى ولا تنسيه !.. ولا أخفى عنك انك قد تقتلينه بطيشك واندفاعك فى عاطفة حمقاء خيالية نحو ابن شخص يسره أن يرى اباك موسدا فى قبره ، او اذا أظهرت له انك تذوبين حزنا وأسى بسبب فراق رأى من صالحك ان يفرضه عليك ..

فأجابت قائلة :

ــ اننى لا احزن لشىء على وجه الأرض الا لمرض ابى .. ولا ابالى بأى شىء بجانب أبى .. ولن افعل شيئا البتة ــ مطلقا ــ لن افعل شيئا او اقول كلمة واحدة تضايقه ، ما دمت محتفظة بجميع حواسى .. اننى أحبه اكثر من نفسى يا ايلين .. وقد عرفت ذلك مما افعله كل ليلة من الصلاة والدعاء بأن أعيش بعده ، لأننى أوثر ان اتعذب واشقى لفقده ، على ان يشقى ويتعذب اذا توفانى الله قبله .. أفلا يدل ذلك على اننى احبه اكثر من حبى لنفسى !

ــ ما أجمل هذه الكلمات ! .. ولكن الأعمال ايضا يجب ان تثبت شعورك هذا .. وارجو ان تذكرى ، عندما تتحسن صحته ، تلك القرارات التى اتخذتها فى ساعات الخوف والتوجس ..

وكنا ، أثناء حديثنا ، قد اقتربنا من باب موصد يؤدى الى الطريق خارج الحديقة .. وكانت السيدة الشابة قد استعادت مرحها واشراقها ثانية ، فتسلقت الجدار وجلست على قمة السور ، واخذت تميل الى الخارج لتلتقط بعض

الثمار النابتة وسط زهور أشجار الورد البرى القرمزية ، التى تظلل جانب الطريق .. كانت الثمار السفلى قد اختفت ، أما العليا فلم يكن يستطيع الاقتراب منها ، غير الطيور وحدها ، الا من يتخذ موضع كاثى الحالى .. وبينما كانت تميل لتجذبها نحوها سقطت قبعتها فى الطريق ، فاقترحت أن تهبط زاحفة من فوق السور لتستعيدها ، نظرا لأن الباب كان موصدا .. ورجوتها ان تكون حذرة حتى لا تقع ، وسرعان ما اختفت عن الأنظار فى خفة وسرعة .. ولكن العودة لم تكن بمثل هذه السهولة ، اذ كان الجدار أملس مصقولا ، جيد الطلاء ، خلوا من أى نتوء او متكأ ، كما أن فروع شجيرات الورد الرخوة ، واغصان شجيرات العليق الشاردة ، كانت لا تقوى على أداء اية معونة عند تسلق الجدار .. اما أنا فلم انتبه الى ذلك ، لغفلتى وحمقى ، حتى سمعتها تضحك قائلة :

ـ سوف تضطرين الى احضار المفتاح يا ايلين ، او اضطر الى الانطلاق عدوا حتى كوخ الحارس .. فليس فى استطاعتى تسلق السور من هنا ..

فأجبتها :

ـ ابقى حيث انت .. ان فى جيبى ربطة مفاتيح لعل فيها ما يفتح هذا الباب ، والا ذهبت لاحضار المفتاح ..

واخذت كاثرين تتسلى بالغناء والرقص أمام الباب ريثما مضيت أجرب المفاتيح واحدا بعد الآخر ، ولكنى بلغت آخرها دون ان اجد بينها ما يطابق قفل الباب .. فأعدت عليها رغبتى بأن تبقى مكانها ، وكنت على وشك أن اهرع نحو الدار بأسرع ما فى طاقتى عندما بلغ مسامعى صوت جعلنى أجمد فى مكانى ، وكان ذلك وقع حوافر جواد يقترب مسرعا ..

وتوقفت كاثى عن الرقص كذلك ، فسألتها بصوت خفيض :

ــ من هذا ؟

واذا برفيقتى تهمس فى لهفة بالغة :

ــ ايلين .. ليتك تستطيعين فتح الباب سريعا !

عندئذ انبعث صوت عميق (هو صوت راكب الجواد) يصيح قائلا :

ــ مهلا يا مس لينتون ! .. شد ما يسرنى أن القاك .. ولكن لا تتعجلى الدخول ، فان هناك ايضاحا اود ان اسألك عنه وتجيبينى عليه ..

فأجابته قائلة :

ــ اننى لن أخاطبك يا مستر هيثكليف ، فان ابى يقول انك رجل شرير تمقته وتمقتنى معا ! .. وقد ايدت ايلين ذلك ..

فقال هيثكليف (وكان هو نفسه القادم) :

ــ لا شأن لذلك بالغرض الذى أحدثك من اجله .. اننى لا أمقت ابنى ، على الأقل .. والأمر الذى اود ان أسترعى انتباهك اليه انما يخصه هو .. نعم .. يحق لك أن يحمر وجهك خجلا !.. ألم تكونى ، منذ شهرين او ثلاثة ، تكتبين الى لينتون كل يوم ؟.. أكنت تتخذين من الحب ملهاة ومسلاة اذن ؟..انكما ، كلاكما ، تستحقان الجلد بالسياط جزاء وفاقا، وخصوصا أنت ، لأنك أكبر سنا ، وأبلد شعورا ، كما وضح فيما بعد !.. ولكنى حصلت على خطاباتك، وسوف أبعث بها الى أبيك اذا لم تعيرى كلامى أذنا واعية، او ابديت استهانة بما أقول .. اننى احسبك مللت هذه اللعبة ، فانصرفت عنها ..

اليس كذلك ؟ .. حسنا .. انك عندما طرحتها عنك ، طرحت لينتون معها فى هوة من اليأس والقنوط ! .. لقد كان جادا ، لا لاهيا ولا عابثا ، فأحبك حقا .. والحقيقة الواقعة ، كوجودى على قيد الحياة أمامك ، انه على وشك الموت من اجلك ، وقد سحق قلبه ـ حقا لا مجازا ـ غدرك وتقلب أهوائك .. ومع ان هيرتون ظل طوال الأسابيع الستة الأخيرة يمازحه ويلاعبه ليسري عنه ، وعلى الرغم من اننى اتخذت نحوه تدابير أكثر صرامة ، وحاولت أن أخيفه واروعه ليدع حمقه وغفلته ، فانه يزداد سوءا يوما بعد يوم ، وسوف يغيبه الثرى قبل الصيف المقبل ، الا اذا أنقذته وأعدت اليه الحياة !

فصحت من وراء الباب قائلة :

ـ كيف يمكن لك أن تكذب على الطفلة المسكينة بهذه الجرأة ؟ .. امض لشأنك بالله عليك ! .. فلست ادرى كيف تختلق عن عمد هذه الترهات الخسيسة ! .. سوف احطم القفل بحجر ، يا مس كاثى ، فلا تصدقى كلمة من هذا الهراء الخبيث .. وقد ادركت بنفسك ان من المستحيل ان يموت أحد غراما بشخص غريب عنه ..

فغمغم الشقى الذى انكشف امره ، قائلا :

ـ لم أكن اعلم ان هناك جواسيس يسترقون السمع ! .. اهذه انت يا مسز دين العظيمة ؟ .. اننى احبك ، ولكنى لا احب نفاقك يا ذات الوجهين !

ثم استطرد يقول بصوت عال :

ـ وكيف يمكن لك « أنت » ان تكذبى على « الطفلة المسكينة » بهذه الجرأة ، فتؤكدى لها اننى أبغضها ، وتخترعى لها من

قصص الغيلان ما يخيفها منى وينفرها من بيتى ؟.. اسمعى يا بنيتى العزيزة ، يا كاثرين لينتون (وهذا الاسم بالذات يبعث الدماء حارة فى عروقى) سوف اغيب عن منزلى طوال هذا الأسبوع .. فاذهبى لترى بنفسك اننى لم اخبرك الا صدقا .. اذهبى يا عزيزتى ! .. بل عليك أن تتخيلى والدك فى مكانى ، ولينتون فى مكانك ، ثم فكرى بعد ذلك كيف تكون نظرتك الى حبيبك الجحود ، اذا أبى أن يخطو خطوة واحدة لمواساتك ، بينما ابوك نفسه يرجوه ويستعطفه ! .. ولا تقعى فى هذا الخطأ نفسه لا لشىء سوى الغباء والحمق .. اننى أقسم لك بخلاص روحى ، انه يسير نحو القبر سيرا حثيثا ، وليس من يستطيع انقاذه سواك ..

وتهاوى القفل تحت طرقاتى فاندفعت خارجة ، بينما كان هيثكليف يتابع كلامه لها ، وهو يحدجنى بنظرة صارمة ، قائلا :

ـ أقسم لك ان لينتون مشرف على الموت حقا ، وان الحزن والحسرة سوف يعجلان بنهايته المحتومة ! .. وانت يا نللى ، اذا كنت مصرة على منعها من الذهاب ، فامضى الى هناك بنفسك لتريه بعينيك .. أننى لن ارجع من رحلتى الا فى مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل ، ولا احسب ان سيدك نفسه يطاوعه قلبه على منعها من زيارة ابن عمتها !

فقلت لكاثرين : « تعالى معى »

وكنت قد أمسكت بذراعها وانا اكاد اجرها الى الداخل جرا ، بعد أن رأيتها تتلكأ مترددة ، وتتطلع الى وجه محدثها بعينين يملؤهما القلق والانشغال ، بينما كانت أساريره الجامدة من الصرامة بحيث تخفى خداعه ولؤمه .. وما لبث ان دفع بجواده الى جانبها ، ومال فوقه نحوها ، قائلا :

ـ اننى أعترف لك يامس كاثرين بأن صبرى قد نفد من

لينتـون وحالته ، كما ضـاق به هيرتون وجوزيف ذرعا ، واعترف لك أيضـا بأنه يعيش فى وسـط سمته الفظاظة والخشونة .. وانه يذوى سريعا لحرمانه من العطف والحب .. لذلك فان كلمة رقيقة منك سوف تكون خير دواء له .. فلا تلقى بالا الى تحـذيرات مسز دين القاسـية ، بل كونى رفيقة كريمة ، واسعى الى رؤيته .. فانك تتراءين له فى أحلامه بالليل والنهار، وهو لايتخلي عن عقيدته بأنك تكرهينه، بعد ان امتنعت عن زيارته والكتابة اليه ..

فأغلقت الباب ودحرجت وراءه حجرا ليدعمه بعد ان تحطم قفله ، ثم نشرت مظلتى وجذبت وديعتى تحتها ، اذ بدأ المطر يتساقط علينا من بين فروع الأشجار الشجية الأنين ، نذيرة لنا بألا نتوانى فى الخارج حتى لا تفاجئنا سيوله المنهمرة .. وكان اسراعنا وتلهفنا على العودة للدار يمنعاننا من التعليق على هذا اللقاء غير المتوقع مع هيثكليف ، ولكننى تكهنت ، بالهام من غريزتى ، بأن قلب كاثرين كان ملبـدا بغيوم الظلمـات الكثيفة .. وكان الحزن والأسى يطبعان أساريرها بطابع غريب بدلها تبديلا ، حتى لقد انكرتها .. وكان من الجلى انها صدقت كل كلمة وكل حرف مما سمعته ..

ووجدنا السيد قد اوى الى حجرته قبل عودتنا ، فتسللت كاثى اليها لتسأل عن حالته ، فألفته مستغرقا فى النوم ، وعنـدئذ عادت لتطلب منى أن اجلس معهـا فى المكتبة .. وتناولنا الشاى معا ، فلما فرغنا منه استلقت على البساط ، وطلبت منى ألا اتكلم ، زاعمة انها متعبة مرهقة .. فأخذت كتابا وتظاهرت بالقراءة .. وما ان حسبتنى مستغرقة فيها، حتى بدأت بكاءها الصامت الذى يبدو انه اصبح الآن مسلاتها المفضلة !.. وتركتها تسرى عن نفسها برهة ، ثم اندفعت فى عتاب طويل ، محاولة تسفيه أقوال مستر هيثكليف ومزاعمه

عن ابنه ، والسخرية منها ، كأنما حسبت انها ستوافقنى .. ولكن واأسفاه ! .. فلم تكن لى تلك المهارة وذلاقة اللسان الخليقة بأن تزيل عن نفسها الأثر الذى احدثته روايته .. وكان ذلك مايرمى اليه تماما ..

وأجابتنى اخيرا :

ـ ربما كنت على حق ياناللى ، ولكنى لن أحس بالراحة قط حتى اعرف الحقيقة .. .. ولا بد لى من أن اخبر لينتون بأنه لم يكن لى ذنب فى امتناعى عن الكتابة اليه ، وان اقنعه بأننى لن اتغير عن عهده قط ..

فما جدوى الغضب والاحتجاج ازاء سذاجتها الحمقاء ، وسلامة نيتها البلهاء ؟ ..

لقد افترقنا تلك الليلة على غير وفاق .. ولكن اليوم التالى شهدنى على الطريق الى « مرتفعات ويذرنج » ، مهرولة بجانب مهر سيدتى العنيدة .. فلم يكن فى وسعى ان أطيق رؤيتها حزينة ، وان احتمل مرأى وجهها الشاحب وعينيها المقروحتين بالبكاء .. ورضخت لرغبتها ، وقد تراوحنى أمل واه بأن يثبت لها لينتون نفسه، عند استقباله لنا ، مبلغ مافى الرواية من كذب وبهتان ..

ترقب الجزء الثالث والأخير من (مرتفعات ويذرنج)

بهذا ينتهى الجزء الثانى من الترجمة الكاملة الأمينة لهذه القصة الإنسانية الخالدة .. وفى الجزء الثالث والأخير منها ، الذى يصدر بعد نحو أسبوعين باذن الله ، تقرأ تتمة القصة ، فتقف على « اللمسات » الرائعة التى جعلت منها صرحا أدبيا وهب مؤلفته الخلود ، وزود التراث العالمى بعمل ضخم يحتل مكانة سامية فى كل لغة !

(اذا أردت تجليد الأجزاء الثلاثة فى مجلد واحد ، فلا تنس أن تنزع الورقات الثلاث الأولى والورقة الأخيرة ، من كل من الجزءين الثانى والثالث ، كى تتتابع أرقام الصفحات فى تسلسل منتظم .)


كتابى
الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية
الجحيم هو الناس!
جان بول سارتر
نساء الهوى
برنارد شو
فولتير العاشق
ليالى البلقان
حياة توماس مان
الشمس تشرق ثانية
ارنست همنجواى
حياة البرت شفايتزر
أقوى من المال!
جان أنوى
ابراهام لنكولن فى حياته الخاصة
نماذج من النساء
ارسكين كالدويل
قصة حياة فندق ادلون (برلين)
نساء ومآس فى ساحة العدالة
الغريب
البير كامى
حياة "فلمنج" مكتشف البنسلين
يحشد لك فى أعداده القادمة
مجموعة ضخمة من أروع الكتب الحديثة
التى جلبها لك من عواصم أوربا وآسيا
.. فيفتح أمام ذهنك آفاق الثقافة
العالمية على مصراعيها .. ويكفل لك
ولأولادك زادا عقليا وغذاء وجدانيا
لم يسبق لهما مثيل باللغة العربية.
احرص على اقتناء كل عدد جديد
واطلب الأعداد السابقة من الإدارة
١٤ شارع ٢٦ يوليو (عمارة الجندول) - ت: ٥٩٥٥٦
يصدره حلمى مراد
فى كل عدد من كتابى: سيرة حياة شخصية عالمية + قصة طويلة + كتاب فى علم النفس
+ مسرحية ملخصة + محاكمة جنائية أو قصة تاريخية + كتاب عزلى ملخص .. الخ ..
علاوة على باب المحرر: "رأيت وسمعت لك فى ..."